ابو الكلام آزاد
(وزير معارف الهند)

شخصية

ذي القرنين

المذكورة في القرآن

منشورات دار البصري
(طبعت بمطبعة أسعد)



١

جاء في سورة الكهف ذكر شخص من التاريخ القديم، لقبوه بـ « ذي القرنين ». والآيات كما يلي:

« ويسئلونك عن ذي القرنين، قل سأتلوا عليكم منه ذكراً. إنا مكنا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سبباً. فأتبع سبباً حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة ووجد عندها قوماً. قلنا يا ذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا. قال أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذاباً نكراً. وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى، وسنقول له من أمرنا يسراً. ثم أتبع سبباً. حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها ستراً. كذلك، وقد أحطنا بما لديه خبراً. ثم أتبع سبباً. حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوماً لا يكادون يفقهون قولاً. قالوا يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض فهل نجعل

كلمة

(هـذا بحث نفيس هام في مسألة تاريخية عويصة ، حار فيها الباحثون قديما وحديثا . جاء في القرآن ذكر ملك قديم سمي بـ (ذي القرنين) . فمن كان هـذا الملك ؟ أين وجد ؟ لم لقب بهـذا اللقب العجيب ؟ كيف تولدت الفكرة التي أوحت بهذا اللقب ؟ من هم أصحاب الفكرة ؟ هل وجد ملك لقب بهذا اللقب حقا ، أم هو أسطورة من أساطير الأولين ؟ هذه وغيرها من الأسئلة تحوم حول المسئلة ، وقد شغلت بال العلماء والباحثين قرونا كثيرة . وهم مع جهودهم الطويلة الشاقة لم يصلوا إلى جواب مقنع . ولكن البحث الذي ننشره الآن نقلا عن مجلة ثقافة الهند قد حل المسئلة حلا نهائيا فيما نظن ، فأزاح الستار عن شخصية (ذي القرنين) وأجاب عن كل الأسئلة المتعلقة بها جوابا شافيا ، فهو حقيق بدرس الباحثين واهتمامهم) .

منشورات
دار بصرى

٢ ـ أعطاه الله الملك وهيأ له أسباب الحكم والغلبة .

٣ ـ كانت مهماته الحربية الكبرى ثلاثة : الأولى غربيه ـ زحف من بلاده متوجها إلى الغرب حتى وصل مكانا كان له حد المغرب ، فوجد الشمس هناك كأنها تغرب في عين . والثانية شرقية ـ فما زال يتقدم حتى بلغ أرضا لا عمران فيها ، تقطنها القبائل البدوية . والمهمة الثالثة وصلت به إلى مكان به مضيق جبلي ، يشن من ورائه قوم الغارات على الأهالي الذين سموهم باسم يأجوج ومأجوج . وكان هؤلاء همجا حرموا من المدنية والعقل .

٤ ـ أقام الملك سدا فى المضيق الجبلى لمنع غارات القوم .

٥ ـ لم يتكون هذا السد من الحجر والآجر فقط ، بل استهلك فيه الحديد وأفرغ عليه النحاس كذلك، فأصبح سدا منيعا تعجز دونه همم المغيرين.

٦ ـ كان الملك مؤمنا بالله وبالآخرة .

٧ ـ كان ملكا عادلا رحيما برعيته ، لا يبيح الفتك والقسوة بالمفتوحين ، فانه لما تغلب على قوم فى الغرب ، ظنوا أنه يرهقهم كغيره من الملوك الفاتحين . فلم يفعل ذلك بل قال لهم ، لا خوف على الأبرياء منه ، أنه من يعمل خيرا يجز به . كان القوم في قبضة يده لا ناصر لهم ، إلا أنه أشفق عليهم وكسب قلوبهم بعدله وإحسانه .

٨ ـ لم يكن حريصاً على المال . فانه لما أراد المفتوحون أن يجمعوا له المال لاقامـة السد ، أبى أخذه منهم قائلا إن ما أعطانى الله يغنينى عن أموالكم ولكن أعينونى بقوة أيديكم ، أشيد لكم سدا حديدياً .

واستخدمت فى بناءه ...

لَكَ خَرجاً عَلى أنْ تَجعلَ بَيْنَنا وَبَيْنَهم سَدًّا . قالَ ما مَكَّني فيه رَبِّي خيْرٌ فأعينوني بقُوَّة أجعلْ بَيْنكم وبينهُمْ رَدْماً . إتوني زُبَرَ الحديد ، حتّى إذا ساوَى بينَ الصَّدفَيْن قال انْفخوا حتّى إذا جَعلَه ناراً قال إتوني أُفرغْ عَليه قطْراً . فَما اسْطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَما اسْتَطَعُوا لهُ نقباً . قَالَ هَـذا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فإذا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَه دَكّاءَ وَكان وَعْدُ رَبِّي حَقّا » —(١٨ ـ ٨٢)

سبب النزول وبعض الروايات

الظاهر من أسلوب الآيات أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن ذي القرنين ، فجاءت الآيات جواباً للسؤال . فروى الترمذى والنسائي والامام أحمد في مسنده أن قريشا ـ بايعاز من علماء اليهود ـ سألت النبى عن أمور ، منها ذو القرنين ، فقالت : « من هذا الرجل وما هي أعماله ؟ » وروى القرطبى عن السندى: « قالت اليهود ، أخبرنا عن نبى لم يذكره الله في التوراة إلا في مكان واحد . قال ومن ؟ ، قالوا ذو القرنين ، ». وقد أحصى ابن جرير وابن كثير والسيوطي الروايات بهذا الصدد في تفاسيرهم .

خصائص ذى القرنين فى القرآن

إن ما ذكر في الآيات من خصائص (ذى القرنين) يتلخص فيما يأتي :

١ ـ الرجل الذي سئلوا النبى عنه ، كانوا يسمونه بـ (ذى القرنين) . أي أن هذا الاسم أو اللقب لم يضعه القرآن من عنده ، بل الذين سئلوا عنه ، هم الذين أطلقوه عليه . ولذلك قال : (ويسئلونك عن ذى القرنين)

عليه ابن خلدون . ولكن هذه النظرية قامت على افتراض مخطىء لا يدعمه دليل تاريخي وتخالفه القرائن والشواهد كلها .

فنرى أولا أن الآثار أجمعت على أن الذين سألوا النبي عن ذي القرنين ، هم اليهود ، أو قريش بإيعاز من اليهود . فليس هنالك سبب يدعوا اليهود إلى معرفة ملك يمني والاهتمام به إلى حد يسألون عنه أو يشيرون على قريش بالسؤال عنه . وثانياً إن فرضنا أن قريش مكة هم الذين تقدموا بالسؤال من تلقاء أنفسهم ، فبما أن أحوال الملوك الحميريين كانت معروفة لديهم ، هذا الافتراض كذلك لا يغنينا شيئاً ، إذ لو كان الأمر هكذا لوجدنا له أثرا وذكرا في روايات العرب وأساطيرهم ، أو في احاديث الصحابة والتابعين . وهذا لا وجود له البتة . ثم لا يغرب عن البال أن السائلين أرادوا تعجيز النبي ، فكانوا على يقين من أنه لم يصله خبر عن ذى القرنين من أبناء وطنه ، فيعجز عن الجواب . ولو كان ذو القرنين رحلا من العرب وكان أهل الحجاز على علم منه ، لشاركهم النبي فيما يعلمونه ولما كان ثمة وجه للسؤال عن شيء معروف عنده .

والمسألة الحقيقية التي نحن بصددها ، هل تنطبق الخصائص والأعمال التي ذكرها القرآن لذى القرنين على ملك حميرى ؟ يذكر القرآن فتوحا له في الغرب وفتوحا له في الشرق وإقامة سد حديدي يمنع هجمات يأجوج ومأجوج . ولم توجد إلى الآن شهادة تاريخية على وجود ملك حميري ، أمعن في الشرق والغرب مغيرا فاتحا ، وبنى سداً حديديا كما ذكره القرآن .. أما كون بعض ملوك اليمن لقبوا بـ (ذى) فلا أهمية له . وكذلك التشبث بسد مأرب لا يجدي نفعا ، إذ لم يذكر أن هــذا السد بنى لصد هجمات قوم واستخدمت في بنائه ألواح من الحديد . ثم إن القرآن أشار إلى سد مأرب

فالشخصية التاريخية التي هذه أعمالها وصفاتها هي شخصية « ذي القرنين » . ولكن من هو هذا الرجل ومتى وأين وجد ؟

إن أول مسألة شغلت بال المفسرين في هذا الصدد ، هو اسم الرجل أو لقبه ، إذ لم يعرف أن يكون لإنسان قرن أو قرون ولم يعرف في التاريخ ملك لقب بهذا اللقب ، فتحيروا وتخبطوا في تفسيره خبط عشواء فقال بعضهم إن (القرن) لم يستعمل في معناه الظاهر بل أريد به الزمن . ولما كان هذا الملك امتد حكمه واتسع نطاق فتوحه إلى عهدين كبيرين ، لقب بذي القرنين . ثم اختلفوا في تحديد مدة القرن ، فقيل ثلاثون سنة ، وقيل خمس وعشرون سنة وقيل عشر سنين ــ أقوال لا طائل تحتها .

وقد جمع ابن جرير الطبري في تفسيره آثار الصدر الأول في الباب . غير أنها لا تلقي ضوءا على شخصية خاصة ، بل تبحث فيما كان ذو القرنين نبيا أو غير نبي ، بشراً أو ملكا ؟ ولكن الآثار أجمعت على أن هذه الشخصية قديمة غارقة في القدم . قيل في بعض الروايات إنه عاصر إبراهيم عليه السلام وإنه كان من الأنبياء ، فذكره البخاري مع الأنبياء القدماء وقدم ذكره على إبراهيم ، فكأن البخاري رأى أن ذا القرنين وجد قبل إبراهيم بزمن قليل أو في عصره .

ولما بدأ عهد جديد للبحث والنقد ، اتجهت أذهان بعض المؤرخين إلى اليمن ، فظنوا أنه كما ذكرت الروايات أسماء الملوك الحميريين كـ (ذي المنار) و (ذي الأذار) ، فلا يبعد أنه وجد ملك يمني سمي بـ (ذي القرنين) كذلك . وقد صرح به أبو الريحان البيروني في (الآثار الباقية)[1] ووافقه

---

١ ــ الآثار الباقية صفحة ٤٠ .

[illegible] : (ويسئلونك عن ذي القرنين)

ولا عجب ، فالطريق الذي سلكه المفسرون كان طريقا خاطئا . لقد صرحت الآثار بأن السؤال كان من قبل اليهود ، فكان لائقا بالباحثين أن يرجعوا إلى أسفار اليهود ويبحثوا هل يوجد فيها شيء يلقي الضوء على شخصية ذي القرنين . إنهم لو فعلوا ذلك لفازوا بالحقيقة .

سفر دانيال ورؤياه

يوجد بين دفتي (العهد القديم) سفر نسبوه إلى دانيال النبي ، وذكروا فيه بعض أعماله ، وما كشف له عنه في رؤياه أيام أسر اليهود ببابل .

لقد كان عهد الأسر هذا ، عهد ابتلاء عظيم لليهود ، فقد دوخت بلادهم وديست قوميتهم وخرب هيكلهم المقدس ، فكانوا في حزن ويأس عظيمين ، لا يدرون كيف ومتى يتبدل أسرهم بالحرية وحزنهم بالسرور وموتهم القومي بحياة جديدة . يقول لنا السفر المذكور آنفا إنه ظهر في تلك الأيام السود دانيال النبي . فتقرب بنبوءاته العجيبة وحكمته البالغة إلى ملوك بابل الذين تقبلوه بقبول حسن ، فأنسوا به وأكرموه ورفعوه فوق السحرة والعرافين ، وإن دانيال رأى رؤيا في السنة الثالثة لجلوس الملك بيلشاصر . كشفت له ماهو واقع من الأحداث ، فجاء في الباب الثامن من الكتاب :

« في السنة الثالثة لجلوس بيلشاصر الملك كنت بمدينة سوس هيرا من أعمال عيلام على شاطىء النهر أولاي . فرأيت الرؤيا للمرة الثانية رأيت كبشا واقفا على شاطىء النهر له قرنان عاليان . وكان الواحد منهما منحرفاً إلى وراء ، ورأيت الكبش ينطح بقرنيه غرباً وشرقاً وجنوباً . لا قبل لحيوان بالوقوف أمامه . فهو يفعل مايشاء وصار هو كبيراً جداً . وبينما أنا أفكر في هذه الظاهرة إذ رأيت تيساً أقبل من جهة الغرب وغشى وجه الأرض

في مكان آخر ولا شبه بينه وبين سد ذى القرنين بوجه من الوجوه .

ثم جاءت طبقة أصحاب النظر فذهبوا إلى أن الأسكندر المقدوني قد اشتهر بملكه وانتصاراته في الشرق والغرب . فيكون هو ذا القرنين . والظاهر أن الشيخ أبا علي سينا أول من قال بهذا في كتابه (الشفاء) فانه عند بيان مناقب أرسطاطاليس ذكر أنه كان معلماً للاسكندر الذى ذكره القرآن باسم ذى القرنين وأثنى على إيمانه وسلوكه القويم . وتابع الامام فخر الدين الرازي ابن سينا فى رأيه . وسرد فى تفسيرة الشهير ـ على عادته كل ماقيل خلاف هذا الرأي . ولكنه اقتنع كذلك ـ على عادته ، بالأجوبة الواهية ، فى حين أن الاسكندر المقدوني لايمكن أن يكون ذا القرنين الذي ذكره القرآن بحال ، ولا يقال عن فتوحه إنها فتوح في الشرق والغرب ، وكذلك إنه لم يبن سداً في حياته كلها . ثم إننا نستطيع أن نجزم بأنه ما كان مؤمنا بالله ولا شفيقا عادلا مع الشعوب المغلوبة . إن هذا المقدونى قد دون التاريخ حياته ولا يوجد شبه بين أحواله وأحوال ذى القرنين . وفوق هذا ليس ثمة سبب يسوغ تلقيبه بذى القرنين ، حتى أن الامام الرازي نفسه . مع تفننه فى إيجاد النكات ، قد عجز عن إثباته.

٢

(تاريخ اليهود القومى)

(وتصور شخصية ذي القرنين)

والحاصل إن المفسرين لم يصلوا إلى نتيجة مقنعة في بحثهم عن ذي القرنين . القدماء منهم لم يحاولوا التحقيق ، والمتأخرون حاولوه ولكن كان نصيبهم الفشل .

بيت المقدس من جديد ويجتمع الشعب الاسرائيلي الممزق مرة أخرى تحت رعايته .

وقد ظهر بعد هذه النبوءة بسنوات الملك كورش الذي سماه اليونان بـ (سائرس) واليهود بـ (خورس) . وحد مملكتي مادي وفارس وأنشأ منهما سلطنة عظيمة ، ثم هاجم بابل واستولى عليها دون عناء . رأى دانيال في رؤياه أن الكبش ذا القرنين ينطح بقرنيه في الغرب والشرق والجنوب أي يحوز انتصارات باهرة في الجهات الثلاث . هكذا كان أمر كورش فقد كان انتصاره الأول في الغرب والثاني في الشرق والثالث في الجنوب أي في بابل . وكذلك صدقت النبوءة بخلاص اليهود وازدهارهم ، فقد أطلقهم كورش بعد فتحه بابل من الأسر وأذن لهم بالعودة إلى فلسطين وبناء الهيكل من جديد . وحذى حذو غورش خلفاؤه من ملوك مادي وفارس فما زالوا يحمون اليهود ويرفقون بهم .

نبوءات يشعياه ويرمياه

وفي التوراة نبوءات فيما نحن بصدده في سفرين غير سفر دانيال ، وهما سفر النبي يشعياه وسفر النبي يرمياه . نجد في الأول منهما اسم كورش بعينه وإن كان النطق به في العبرية (خورش) . ويعتقد اليهود أن كتاب يشعياه ألف قبل كورش بمائة وستين سنة وكتاب يرمياه بستين سنه . ونجد في كتاب عزرا تفصيلا كاملا للأمر ، فقد ذكر أن نبوءات دانيال هذه وصلت إلى مسامع الملك غورش بعد فتحه بابل ، فتأثر بها أي تأثر ، وكانت النتيجة أن قام لحماية اليهود ، فأطلق سراحهم وأمر بتجديد بناية الهيكل وكتاب يشعياه يخبر أولا بخراب يروشلم على أيدي البابليين . ثم يبشر بتجديد

كلها وكان بارزا بين عيني التيس قرن عجيب . ثم إن التيس اقترب من الكبش ذي القرنين ونفر منه مغضباً ثم عمد إليه فكسر قرنيه وصرعه وداسه فأصبح الكبش ذو القرنين عاجزا عن مقاومته ، محروما من ناصر ينصره عليه) - سفر دانيال ٨ : ١ .

ثم ذكر الكتاب على لسان دانيال أن الملك جبريل ظهر له وشرح رؤياه قائلا : إن الكبش ذا القرنين يمثل اتحـــاد المملكتين : مادي وفارس ، فيملكها ملك قوي لا تقدر دولة على مواجهته . أما التيس ذو القرن الواحد الذي رآه بعد الكبش ، فالمراد منه ملك اليونان . والقرن البارز بين عيني التيس ، يدل على أول ملك من اليونان (٨ : ١٥) .

فهـــذه الرؤيا أو النبوة مثلت فيها المملكتان - مادي وفارس ، بقرنين ولما كانت المملكتان ستتحدان وتصبحان مملكة واحدة . مثلت شخصية ملكها بكبش ذي قرنين . ثم الذي يقضي على هذا الكبش ذي القرنين ويسيطر على الأرض كلها . هو قرن تيس اليونان . أي الاسكندر المقدوني . فقد حمل الاسكندر على داريوش . امبراطور مادي وفارس ، وانهارت به سيادة اسرة هخامنشي أو المملكة الكيانية إلى آخر الدهر .

ومما ينبغي ذكره هنا أن كلمة (القرن) عامة في اللغتين : العربيـة والعبرية . فقد وصف الكبش في سفر دانيال العبري (له قرنان) أي أنه ذو القرنين .

كانت لليهود في رؤيا دانيال بشارة بأن نهاية أسرهم ببابل وبدء نشأتهم الجديدة ، منوط بقيام هذه المملكة ذات القرنين أي أن ملك مادي وفارس يغير على ملك بابل ويتغلب عليه ويحرر اليهود من أسرهم . وإن هذا هو الملك الذي اختاره الله لإعانة اليهود ورعايتهم ، فيأمر بتعمير

وأعود بكم إلى أوطانكم » «٣٩ : ١» .

فيتجلى من نصوص أسفار اليهود هذه أن تصور « ذي القرنين » للملك كورش كان قد بدأ . لأنه مثل في رؤيا دانيال النبي بكبش ذي قرنين وأن شخصية الملك كورش كانت قد احتلت مكانا هاما في عقيدة اليهود.

المنهج الحديث لنقد العهد القديم

وزمن تأليف أسفار يشعياه ويرمياه ودانيال

إن اسلوب نقد العهد القديم الذي بدأ في القرن التاسع عشر باسم « النقد الأعلى » والذي فاز فيه بالقسط الأوفر العلماء الألمان ، قد دونت نتائجه ، وكذلك انضمت اليها بحوث علماء القرن العشرين ، فنجدهم قد انتهى بحثهم في نبوءات الأسفار الثلاثة وفي زمن تدوينها الى ما يأتي :

ان الكتاب الذي نسب الى يشعياه النبي . تنطق مواضيعه ولغته وكل ما احتوى عليه بأنه تأليف ثلاثة من المؤلفين ، وجدوا في أزمان ثلاثة مختلفة . فهو من بابه الأول الى الباب التاسع والثلاثين تأليف مؤلف ومن بابه الأربعين الى الآية الثالثة عشر من الباب الخامس والخمسين تأليف مؤلف ثان ، والذي بعده من الكتاب ألفه مؤلف ثالث . ولتسهيل المراجعة اصطلحوا في المباحث النقدية على أن يقولوا : يشعياه الاول ويشعياه الثاني ويشعياه الثالث . فهم يرجحون أن يشعياه الاول كان في العهد الذي يرويه اليهود ، أي قبل الملك كورش بمائة وستين سنة . أما يشعياه الثاني الذي تنبأ بظهور كورش ، فكان عائشا أيام أسر بابل كما هو ظاهر من أقواله التي تشعر بظروف غير ظروف صاحبه الأول . وأما كلام يشعياه الثالث فعهده بعد الثاني . وهو يقدم لنا ظروفا وحالات تختلف

عمرانها . ويذكر في هذا الشأن (خورس) أي الملك كورش فيقول :

(يقول الرب المنقذ . . . . . تعمر يروشلم من جديد ، وتقوم مدن يهودا مرة أخرى . أنا أبني بيوتها المخربة كرة أخرى) (٤٤ : ٣٤)

« وإني أقول في حق خورس (كورش) بأنه راع لي وهو يتم مرضاتي كلها . . . . يقول الرب في شأن مسيحه خورس ، أنا أخذت بيده اليمنى لأجعل الأمم في حوزته وأنزع القوة من سواعد الملوك وأفتح له الأبواب تلو الأبواب . أحل . إني أمشي بين يديك ، وأقوم ما اعوج من سبلك ، وأكسر الأبواب النحاسية ، وأمنحك الخزائن المدفونة والكنوز التي في البيوت المغيبة . أفعل كل ذلك لتعلم أني أنا الرب ، إله إسرائيل الذي ناداك باسمك صراحة لأجل إسرائيل ، شعبه المختار » (٤٥ : ١) .

وشبه كورش بعقاب الشرق في مكان آخر من الكتاب فقال :

« ها ! أنظروا ، إني أدعو عقابا من الشرق أدعو ذلك الرجل الذي يأتي من أرض بعيدة ويتم سائر مرضاتي » (٤٦ : ١١) .

وهكذا نقرأ في كتاب يرمياه :

« نادوا في الأمم ولا تخافوا . قولوا أخذت بابل . خزى البعل (صنم بابل الشهير) ، بهت مردوخ « صنم بابلي آخر » ، لحق العار بجميع أصنامها حملت أوثانها شذر مذر . لأن شعبا من الجنوب مقبل زاحفا نحو بابل . يخرب أرضها ، حتى لا ترى بها بشرا » - يرمياه ٥٠ : ١ .

وهذا السفر كذلك يتنبأ بأسر اليهود ودمارهم ثم يبشر بتجديد عمارة يروشلم ، فيقول :

« يقول الرب لما تكمل سبعون سنة على أسر بابل ، آتي اليكم . إذ ذاك تدعونني فأجيبكم ، تنشدونني فتجدونني . أفك القيد عنكم

بابل بقرون عندما بلغت الامبراطورية الرومانية أوج مجدها . ليس هذا فحسب ، بل ارتاب الباحثون في وجود دانيال النبي نفسه . فرأى بعضهم أنه لم يوجد قط وإنما اختلقوه لنسج هذه القصة . واعترف البعض الآخر بوجوده أيام أسر بابل دون أن يسلم بالأقوال التي نسبت اليه . قائلا إنها اخترعت فيما بعد لتقوية آمال اليهود وستغملهم بنبوءات وخوارق ماضية. والذي رجحه أكثر الباحثين أن زمن تأليف هذا الكتاب لا يتعدى القرن الاول قبل الميلاد ، فالأستاذ مكس لوثر وضع كتاب دانيال في قائمته التي كتبها للعهد القديم في سنة ١٦٤ ق . م ١

تخيل اليهود القوى وانتظارهم لمنقذ

ان ما أسلفناه من كتاب يشعياه النبي ، ظهرت فيه شخصية الملك خورس « كورش » كمنقذ موعود به أرسله الله لتحرير اليهود من أسر بابل وتجديد عمارة يروشلم . فقال الله ، ان خورس راع لي ، وهو يتم مرضاتي كلها » . وقال « أنا أخذت بيده اليمنى لأجعل الامم في حوزته» ثم يخاطب الله خورس نفسه قائلا « أوهل كل ذلك لتعلم أنني أنا الرب . إله إسرائيل الذي ناداك باسمك صراحة لأجل إسرائيل ، شعبه المختار »

فنرى بجلاء ، والحالة هذه ، تلك العقلية اليهودية التي مازالت تؤملهم عند كل كارثة نزلت بهم في ظهور منقذ ينقذهم منها ، والتي اتخذت نهائيا شكل العقيدة القومية بمجيء مسيح موعود به . فكتاب يشعياه يصور خورس « كورش » كذلك بصورة مسيح ، فينص في شأنه بصراحة تامة قائلا « إن الله يقول في حق خورس مسيحه» .

---

١ ـ ان هذا الكتاب للاستاذ مكس لوثر من المطبوعات الحديثة ، فهو اتم الاطلاع على أحدث المعلومات في الباب .

عن سميه الذى تقدمه . فالنبوءات بغارة نبو خد نضر وأسر اليهود ببابل وظهور كورش ، نجدها في كلام يشعياه الثانى ، وهو في الواقع كان عائشا في ذلك العهد ، ولا يمكن نسبة كلامه الى يشعياه الاول . ان الرجل صبغ حوادث زمنه والتى قبل زمنه بصبغة القدم . ونسب كلامه الى يشعياه الاول ليوهم الناس بأنه كلام قديم مضت عليه مائة وستون سنة . قال الباحثون ان أكبر دليل على اختلاف شخصيات المؤلفين ، هو الاختلاف الفكرى وتباين المزاج التصورى الذى يوجد في الكتاب . فاليهود من أول يومهم تخيلوا الله كأله قبائلي ، وافترضوا معبده معبدا قبائليا . فكان يهوي إله إسرائيل الشعبي والقبائلي لايمت بصلة مع شعوب أخرى . ولكنا نجد فى كتاب يشعياه لأول مرة تصورا إلهيا جديدا ـ تصور إله عام للبشر كله، ونجد الهيكل الاسرائلي بيروشلم يتحول من معبد قبائلي الى معبـد عام لسائر الأمم الانسانية . هذا التصور الجديد ، هو تصور يشعياه الثالث خاصة ، لأن الظروف التي كانت لازمة لخلق هذا التصور ، لم توجد فى زمن يشعياه الأول .

وهكذا مانجده في سفر يرمياه من النبوءة بانتهاء أسر بابل وتجديد عمارة الهيكل ، لايراه الباحثون سابقا للحوادث بستين سنة ، بل يقولون إنه كتب وألحق بالكتاب بعد أن تحرر اليهود من أسر بابل وباشروا التعمير الهيكل من جديد .

أما الكتاب المنسوب الى دانيال فقد ذكرت فيه رؤيا أخرى ، رآها ملك بابل وعبرها دانيال ، ففي تعبيره نجـد نبأ صريحاً بظهور الاسكندر المقدونى وسقوط الامبراطورية الفارسية ، وقيام الامبراطورية الرومانية يرى الباحثون الحديثون أن الكتاب مزور : ألف بعد تحرر اليهود من

مؤرخو اليونان إن واليا من ولاة بابل ، كوب رياس ، كان قد هرب الى بلاط كورش وصحبه في زحمة على بابل . وقال هيرودوتس إن فتح بابل إنما كان بتدبير هذا الوالي . فلما دقق الباحثون في نبوءات يشعياه الثاني بعد درسهم هذه الحوادث التاريخية ، وصلوا إلى نتيجة منطقية حاسمة للوقائع.

ان كلام يشعياه الثاني لايخلو من أن يكون قبيل فتح بابل أو بعده . فان فرضنا الأول ، فلا مناص من الاعتراف بأن يشعياه الثاني كان من أصحاب المؤآمرة المدبرة لدعوة كورش الى الفتح أو ، على أقل تقدير ، كان مطلعا على ظروف الزمن السياسيه اطلاعا تاما . فصاغ تلك الظروف والآمال على ديدنة مؤلفي أسفار اليهود في صيغة النبوءات وألحقها بكلام يشعياه الأول . وان فرضنا أن ماقاله يشعياه الثاني كان بعد الفتح لسهل الأمر . فقلنا ان المصالح القومية حملت الرجل على أن يصور الحوادث التي وقعت فعلا بنبوءات وأنباء بالمستقبل ناسبا كلامه الى يشعياه الاول

النبوءات اليهودية والامبراطور كورش

نجد في سفر آخر من التوراة ينسب الى النبي عزير (عزرا) ماوقع بعد فتح بابل . يخبرنا هذا السفر أن رؤساء اليهود عرضوا النبوءات التي تقدم ذكرها على الملك كورش ، قائلين له ان الرب سماه في كلامه وجعله المنقذ لشعبه المختار وان الملك قد تأثر بما سمع ، فكان أن أصدر أمره بتجديد بناية الهيكل ومما لاريب فيه أن كورش بعد فتح بابل وخلفاءه من بعده قد خصوا اليهود بعطفهم ورعايتهم . وأن بعض اليهود نالوا الحظوة في بلاطهم . هذه واقعة تاريخية لايمكن تكذيبها . قد يكون بعض ماجاء في كتاب عزير خلوا من الصحة ، الا أن الحوادث الاساسية يجب التسليم

بدأت حياة اليهود القوميه بموسى الذي ظهر في عصر كان اليهود يعيشون عيشة الذل والأسر في مصر . لا أمل لهم في حياة قومية عزيزة رغدة ، ولكن موسى بعث فيهم روحاً جديدة وصور لهم المستقبل بصورة رائعة أخاذة بالقلوب وجعلهم يؤمنون بأن رب إسرائيل بعثه لانقاذ بني إسرائيل وإنهاضهم وان مشيئة الرب قضت بأن يفضل شعب المختار على سائر الشعوب . وقد نشأ من هذا الايمان في عقلية اليهود القومية تخيلان أساسيان : فاعتقدوا بأنهم شعب الله المختار . وبأن الله أرسل اليهم منقذا عندما كانوا في الذل والأسر . فتولدت من التخيل الاول فيهم نظرية الترفع القومي ومن الثاني نظرية ظهور منقذ عندما تنزل بهم النوازل ، فاعتقدوا بأنهم كلما يعمهم البلاء والدمار ، تتحرك رحمة الله فيرسل منقذا موعوداً . يخرج بهم الى السلامة والرفاهية .

وقد ظهر شاؤل (طالوت) والنبي داؤد في ظروف كهذه ، خلقت في الشعب آمالا جديدة . ولذلك نجد داؤد أيضاً لقب بـ (المسيح) ولعل هذا كان أول استعمال للقب . وكان لزاما . والتقاليد القومية هذه ، أن ينبثق نور جديد للأمل في ذلك الظلام القاتم الذى وجد فيه اليهود أنفسهم ببابل ويتهيأ الذهن اليهودي في ضوئه لانتظار منقذ لهم فآمال النجاة والتحرر هذه هي التي تجلت في كلام يشعياه الثاني في حلل النبوءات .

يشعياه الثاني ودعوة كورش لفتح بابل

أجمعت روايات العهد القديم وروايات المؤرخين اليونانيين على أن أهل بابل كانوا قد ضجوا من عسف ملكهم . بيل شازار . فتآمروا على دعوة إمبراطور فارس . كورش للاستيلاء على بابل . علموا المعاملة الحسنة التي عامل بها هذا الملك أهل ليديا بعد الغلبة فرجوا مثلها منه لأنفسهم . يقول

كلها ، يجب أن نسلم بأن شخصاً وجد بهذا الاسم وانه نال الحظوة في بلاط بابل بعلمه وحكمته .

علاقات اليهود والزردشتيين

لنقف هنا قليلا فنرى ناحية اخرى هامة من البحث . لا ينبغي أن ننسى أن كورش كان من متبعي مذهب مزديسنا (١) أي الدين الزردشتي . هذا أمر له أهمية خاصة في العلاقه التي كانت بين الفارسيين والاسرائيليين . من المعلوم أن الوثنيه كانت عامة شاملة العالم كله ، لم يشذ عنها إلا فئتين اثنتين : اليهود والزردشتيون . فقد اجتنب الدينان الوثنية وأشكالها من كل الوجوه . وليس في تاريخ أهلها مجال للاعتراف بالوثنية . ما دام الامر هكذا فمن المعقول أن نفرض أن غورش بعد تغلبه على بابل ، لما بلغته عقائد اليهود والأحكام الأخلاقية التي جاء بها دينهم ، يكون قد وجد تصوراتهم الدينية قريبة جداً لتصوراته الدينية : فاندفع بطبيعة الحال الى احترامهم وتلقي نبوءاتهم برغبة خالصة .

وهنا أمر آخر جدير بالتدبر . إن مؤرخي العرب عندما أقبلوا على تدوين التاريخ قبل الاسلام ، وجدوا في الروايات الاسرائيلية ما يربط زردشت وأتباعه بأنبياء بني اسرائيل . ذكر الطبري هذه الروايات واستشهد بها المؤرخون بعده . لا ريب إنها روايات باطلة واهية لا أصل لها إلا أن وجودها يدل على الفكرة اليهودية التي كانت ترمي الى التقرب من الدين الزردشتي ، وأن هذه الفكرة على مر الأيام اتخذت أشكال الروايات

(١) لا معنى لهذه الكلمة لأن المزدكية غير الزردشتية فيقال (زدشتيان) ومزدكيان ؟ (الناشر)

بها . فمن المعلوم أن أسر اليهود ببابل قد انتهى باستيلاء كورش عليها ، وأن عددا كبيرا منهم رحل الى فلسطين ليتوطن بها . وأن الامبراطور كورش هو الذي أذن لهم بسكنى فلسطين وتعمير المدن المخربة ، وذلك بمنشورات ملكية خاصة . ومن المعلوم كذلك أن الهيكل بيروشلم قد بني من جديد وصدرت في شأنه أوامر ملكية مرة بعد أخرى . وقد نقلت أحكام كورش وداريوش وأردشير (أرتخششت) في كتاب عزير ، تؤيدها بعض كتابات مؤرخي اليونان . ثم ان روايات اليهود القومية تقول ان عزرا ونحميا وحجي الانبياء قد وصلوا الى مقام كريم في بلاط الامبراطور أردشير (أرتخششت) وانهم هم الذين حملوا الملك على اصدار أوامره الخاصة باليهود . وليس هنا سبب ظاهر يدفع لانكار كل هذا . فان صحت هذه الحوادث فعلينا أن نبحث عن العوامل التي حملت كورس على الرفق باليهود ، ونتساءل : ألم تكن هذه النبوءات من تلك العوامل ؟ ان أهم ما في النبوءات اليهودية نبوة دانيال التي مثلت فيها المملكة المتحدة من مادي وفارس في شكل كبش ذي قرنين . ليس في هذه النبوة من الكلام الدال على الاسكندر المقدوني إلحاقاً . ولكن الجزؤ الاول منها الذي يتعلق بظهور كورش كان من شأنها أن يشهر به في ذلك الزمن . ومن المحتمل جداً أنه اشتهر فعلا ، فيكون كورش قد تلقاه بحسن القبول . وسنتكلم فيما يأتي على التمثال الحجري لكورش الذي عثروا عليه في حفريات ايران ، وهو يحل المسئلة الى حد بعيد .

أما ارتياب الباحثين الحديثين في وجود دانيال، فالقرائن والأخبار لا تدعمه . يجوز أن يكون سفر دانيال اسطورة مختلقة ، ولكن الكلام الذي احتوى عليه لابد له من أصل حقيقي ، فان كنا لا نسلم بقصة دانيال

« ذو القرنين » ، إذ لوحظ أن لفظ « القرن » اشتركت فيه اللغتان العربيـة والعبرية على سواء . ومن المؤكد أن يهود العرب كانوا يسمون كورش بـ « ذي القرنين » . ورواية السندي التي ذكرناها سابقاً تؤيد هذا التفسير ، إذ جاء فيهـا أن اليهود قالوا إن ذا القرنين ذكر في التوراة مرة واحدة فقط ، هذا هو الواقع بعينه ، فالكبش ذو القرنين لم يرد ذكره في التوراة إلا مرة واحدة ، وذلك في سفر دانيال وحده .

بهذا التفسير قد ارتفعت سائر الاشكالات دفعة واحدة . ولاحاجة الآن أن نصرف كلمة « القرن » عن معناها اللغوي العام ، ولا أن نتيه في بيداء التأويلات والتكلفات الباردة . فشخصية « ذي القرنين » التاريخية قد برزت للأعين . أما ما ذكره القرآن من أحوال ذي القرنين فستراها تطابق سوانح كورش مطابقـــة تامة ، دون أن نجهـد أنفسنا في هذا التطبيق .

العثور على تمثال كورش الحجري

خطر في بالي لأول مرة هذا التفسير لـ « ذي القرنين » المذكور في القرآن وأنا اطالع سفر دانيال . ثم اطلعت على ما كتبه مؤرخو اليونان . فرجح هذا الرأي عندي . ولكن شهادة اخرى خارج التوراة لم تكن قامت بعد ، ولا يوجد في كلام مؤرخي اليونان مايلقي الضوء على هذا اللقب . ثم بعد سنوات لما تمكنت من مشاهدة آثار ايران العتيقة ومن مطالعة مصنفات علماء الآثار فيها . زال الحجاب وظهر كشف أثري قضى على سائر الشكوك فتقرر لدي بلا ريب أن المقصود من « ذي القرنين » ليس إلا كورش نفسه . فلا حاجة بعد ذلك أن نبحث عن شخص آخر غيره .

الخرافيـة وما زالت تروج وتتطور حتى حاول اليهود أن يثبتوا أن الدين الزردشتي إنما اقتبس من دينهم، وأن زردشت وخلفاؤه كانوا تلاميذ لأنبيائهم

عقيدة اليهود الدينية والقومية في شأن كورش

ذكرنا فيما سبق آراء الناقدين الحديثين في الأسفار اليهودية، ولكن هـذه الناحية من البحث لا تعنينا . جاءت النبوءات قبل وقوع الحوادث أو اخترعت بعدها ؟ لا تأثير له فيما نحن بصدده . إنما الأمر الذي نريد لفت الأنظار اليه ، هو عقيدة اليهود القوميـة في المسألة . من المعلوم أن أسفار يشعياه ويرمياه ودانيال من كتب اليهود الالهاميـة بلا نزاع ، فهم يؤمنون بأن كل ما جاء فيها من النبوءات قد تنبأ به الأنبياء قبل حدوث الحوادث بزمن طويل وصدقتها الأيام حرفاً بحرف . وكذلك يعتقد اليهود عقيدة راسخة أن ظهور كورش كان من عند الله ، بعثه لانقاذ بني اسرائيل مما كانوا فيه من البلاء العظيم ، ولتجديد عمارة يروشلم . فكورش لقب في كلام يشعياه النبي براعي الله ومسيحه . وقيل فيـه إنه ينفذ إرادة الله وان الله ناداه باسمه وأرسله لحماية بني اسرائيل وانهاضهم . وفي رؤيا دانيال مثل كورش في صورة كبش ذي قرنين . ورآه يشعياه في شكل « عقاب الشرق » . فعقيدة اليهود القومية في هذا الباب واضحة جلية . وهي تثبت أنهم ، مستندين الى أسفارهم المقدسة . كانوا يتصورون كورش بأنه ذو القرنين ويرون ظهوره مصدقاً لبشارات أنبيائهم الالهامية .

ما دام الأمر كما ذكر . فبطبيعة الحال يكون المقصود في سؤال اليهود عن « ذي القرنين » هو شخص كورش لا غير . أي ذلك الملك الذي رآه دانيـال في شكل كبش « لوقرانائيم » : ترجمته بالعربيـــة

/ ٥٣٣

قد تولد لكورش ، ولذلك نجد الملك في التمثال وعلى رأسه قرنان .

جاء في رؤيا دانيال أن الكبش الذي رآه ، كان على رأسه قرنان ، ولكن ليس كسائر الاكباش ، بل كان القرن الواحد منهما وراء الآخر . هكذا نرى القرنين في التمثال . أما الجناحان فوجودهما يطابق ماجاء في سفر يشعياه من قوله « أدعو عقاباً من الشرق ، أدعو ذلك الرجل الذي يأتي من أرض بعيدة ويتم سائر مرضاتي » — الباب ٤٦ ، الآية ١١ . ولهذه الأجنحة اشتهر التمثال بالطير ، والنهر الذي يجري تحته سمي بـ « مرغاب » أي نهر الطير .

ونحن نضم الى هـــذا المقال نقل صورة التمثال التي نشرها القس فارستر في كتابه ، وهي جلية واضحة تقدم للناظر التمثال بجزئياته .

أما متى صنع التمثال ؟ صنع بأمر كورش في حياته أو بأمر خليفة من خلفائه ؟ يصعب البت فيه . إن عاصمة العيلاميين والفرس كانت مدينة سوسان التي تسمى الآن بأهواز وهي واقعة في ايران الجنوبيـة . وكانت عاصمة مادى ، أي ميديا ، مدينة (هغ متانا) التي حرفها العرب فقالوا (همدان) . وهي موجودة الى الآن بنفس هـذا الاسم ، إلا أن محلها انحرف قليلا عن محلها القديم . ولما ملك ارتخششت (الذي سمته العرب بأردشير) بعد داريوش ، اتخذ إستخر عاصمة له وعمرها بقصور وبنايات . وظلت هذه حاضرة الملك الى آخر امبراطور من اسرة همخامنشي وهو داريوش الثالث ، وتخربت بعـــد هجوم الاسكندر بالحريق . ولما فتح العرب البلاد ، كانت إستخر قرية حقيرة ، وأسسوا على مقربة منهـا مدينة شيراز الحاضرة التي تبعد عنها بستين ميلا .

يظهر أن تمثـال كورش اقيم في عهد الملك أردشير ، لأنه موجود

إن هذا الكشف الأثري الهام ، هو تمثال حجري لكورش بعينه ، وجدوه منصوباً في مكان يبعد عن عاصمة ايران القـديمة (استخر) نحو خمسين ميـــلا على شاطىء النهر « مرغاب » . وقد سبق جيمس موريه فأخبر بوجوده . ثم جاء بعد سنوات السير رابرت كيربورتر فقاس المكان وفحصه فحصاً دقيقاً ونشر رسماً للتمثال بقلم الرصاص ، وذلك في كتاب رحلته الى ايران وجارجيا . وقـد تكلم القس فاستر سنة ١٨٥١ في المجلد الثاني من كتابه على التمثال واستدل به على نصوص التوراة وكذلك نشر صورة للتمثال أوضح من الاولى . لم يكن اللثام عن الخط المسماري ازيح كلية إلى ذلك الحين ، إلا أنه كان تقرر أن التمثال لسائرس ، أي لكورش لا غير . وقد دعمت البحوث المتأخرة هـذا القرار تدعيماً لا يدع المجال للريب فيه . ثم ألف الـكاتب الفرنسي الشهير دى لافوا ى كتابه عن الآثار القديمة في ايران نشر فيه صورة عكسية للتمثال ، فعرفه الناس معرفة تامة .

اعترف علماء الآثار في القرن التاسع عشر بحسن التمثال الفني . ويرى دى لافوا ى أنه نموذج ثمين جداً للنحت الفني القديم قائلا إنه النموذج الفني الآسوي الوحيد الذي يضاهي أحسن التماثيل الاغريقيـة . ولا عجب أن احتل التمثال أهم مكان في الآثار العتيقة الفارسية . وقد تحمل عدد من علماء الألمان مشاق السفر الى ايران لا لشيء إلا ليشاهدوا التمثال الجميل .

إنه تمثال على القامه الانسانية ، ظهر فيه كورش وعلى جانبيه جناحان كجناحي العقاب وعلى رأسه قرنان كقرني الكبش . يده اليمنى ممتدة يشير بهـا الى الأمام ولباسه نفس ذلك اللباس المعهود الذي نراه في صور ملوك بابل وايران . وهذا التمثـال يثبت بلا شك أن تصور « ذي القرنين » كان

بضاحية من إستخر التي لم يبق من خرائبهـا إلا منصة حجريّة قام فوقها التمثال . فلنا أن نفهم أن التمثال كذلك يرجع عهـده الى أردشير كما يرجع عهد سائر مباني إستخر اليه . إن كان رأينا هذا صحيحاً فهو يقوي ما قلناه من كون كورش هو ذوالقرنين وذو الجناحين . إذ يدل ذلك على أن لقب كورش هذا كان قد أصبح مشهوراً ومسلماً به في ذلك العصر ، حتى أنهم توارثوه بعد كورش كذلك . ولما أرادوا نصب تمثال له في زمن أردشير ، حملهم ذلك التصور على تصويره بهذه الصورة .

تصور كورش بذي القرنين ورواية الاسفار اليهودية المقدسة

وهنا تواجهنا مسألة أساسية . لقد أثبت التمثال أن تصور ذي القرنين لكورش كان قد شاع وأصبح تصوراً مسلماً به عند اسرة هخامنشي الملكية . ولكن من أين نشأ هذا التصور ؟ إن قبلنا رواية الصحف المقدسة اليهودية ، قلنا إن مبدأ التصور الحقيقي ، رؤيا دانيـال ونبوة يشعياه النبي . فهل نقبل هذا الرأي ؟ أرى أن ما لدينا من المعلومات ، يحملنا على الأخذ به . وأقل ماينبغي أن نفعله . هو التسليم بأمرين : الأول أن رؤيا دانيال قد أشهر بها من بعد فتح بابل . أي الزعم بأن رؤيا كهذه قد وجدت . أجل ، إن ما يتعلق منها بالاسكندر المقدوني ، لم يكن فيها إذ ذاك بل ألحق بهـا فيما بعد . والثاني أن هذه الرؤيا ونبوة يشعياه الثاني قد وصلتا الى مسامع كورش كما ذكره كتاب عزرا ، وأن كورش ورجال بلاطه لم يستحسنوها حسب ، بل تمسكوا بها واتخذوا تصور القرنين والعقاب شعاراً رسمياً للملك ، فصار يوصف بعد ذلك بـ « ذي القرنين » وبـ « ذي الجناحين » وصفاً رسمياً خاصاً به . ولما نحتوا له التمثال أبرزوا


ذو القرنين
تمثال غورس الذي عثر عليه في حفريات اصطخر بايران

والزردشتي تمثيلا بالكبش، إذ أدب أوستا كله خلو من مثل هذه التصورات

٣

اسرة هخامنشي الفارسية وكوروش (١)

لننظر الآن في أحوال كوروش التي حفظها لنا التاريخ، ثم نرى إلى أي مدى تطابق ما ذكره القرآن منها .

الادوار الثلاثة لتاريخ ايران

قسم المؤرخون في العصر الحاضر تاريخ ايران الى ثلاثة أدوار :

فالدور الأول منها هو ما كان قبل هجوم الاسكندر المقدوني .

والدور الثاني هو الدور البارثوي الذي سمته العرب بملوك الطوائف .

والدور الثالث هو العصر الساساني .

وصلت بلاد ايران في الدور الأول من تاريخها الى ذروة المجد والفخار، وقد بدأ بظهور كوروش نفسه، غير أنه، يا للأسف! دور قد أسدل الزمان ستائره عليه، فليس لدينا وسيلة لمعرفته مباشرة، وجل ما علمناه منه، لم يصلنا عن طريق الفرس أنفسهم، بل من قبل شعب معاصر لهم، نعني به اليونان. فلولا الكتابات اليونانية لنسي التاريخ أفخر وأعظم قصة لمجد ايران القديمة، نسياً منسياً .

---

(١) — اسم كوروش باللغة البهلوية « گوروش » بالكاف الفارسية وسماه اليهود بكورش أوخورش. أما العرب فقالوا « قورش » كما نجده في « الآثار الباقية » للبيروني. وقد عدلنا عن هذا وكتبنا كوروش بالكاف للسهولة .

فيه هاتين الصفتين له . وبعبارة اخرى : إن كشف التمثال قد صدق ما قاله كتاب عزرا من أن نبوءات الأنبياء اليهود ، عرضت على كورش فقبلها كنصوص روحية على اصطفائه وفضله .

قد يقال ألا يجوز أن يكون الأمر على عكس ما ذكر . فلا يكون تصور (ذي القرنين) و (ذي الجناحين) تصوراً (يهودياً) . بل ربما كان كورش نفسه او الفرس هم الذين تخيلوه ، وأن هـذا التصور الفارسي لما اشتهر بعد أن اتصف به كورش ، اقتبسه مؤلفوا صحف اليهود وحاكوا حوله نبوءاتهم . فرمزوا بالكبش (قرنيم) في رؤيا دانيال وبعقاب الشرق في كلام يشعياه . إن باب المفروضات مفتوح على مصراعيه . (١) ومن العسير القطع برأي في مثل هـذه البحوث . ولكن لابد لكل فرض من وجود سند خارجي يستند اليه . وسـند كهذا لا يوجد هنا يسوغ لنا رفض شهادة الصحف اليهودية رفضاً باتاً لمجرد عرض شبهة كهذه . وعدا ذلك لا يظهر من التفكر والبحث أن هذا التصور في مزاجه يوافق المزاج الفارسي الفكري . وان شهادته الداخليـة تنطق بأعلى صوتها أنه تصور يهودي بحت . إذ اليهود ما زالوا من الأول يمثلون بعض الحقائق والحوادث للحياة الانسانيـة بكبش او خروف ، فمن ضحية إسحاق إلى كفارة المسيح ومن كتاب الخلق الى مكاشفات يوحنا نجد مرة بعد اخرى تمثيلات بالكبش أو الخروف أو الجدي وبالعكس لا يوجد في الخيال الفارسي

---

(١) ظهرت من الاكتشافات الأثريه الاخيرة ان شعار القرنين كان شعاراً عاماً للابطال وذوي القوة الخارقة من الفرسان في تلك الاحقـاب السحيقة حيث كان المحارب العظيم يضع على رأسه خوذة او قلنسوة فيها قرنان مقوسان دليلا على شجاعة الرجل وبأسه وقد وصف ذلك الفردوسي في الشاهنامه . (الناشر)

على فارس ، حلت الاسطورة محل التاريخ الحقيقي .

ولما أراد المؤرخون العرب تدوين تاريخ فارس القديمة ، لم يجدوا منه شيئاً ، إلا هذه الاسطورة التي دونت في العصر الساساني . فالكتب البهلوية التي ذكرها أبوحمزة الأصفهاني ، وابن النديم ، والمسعودي وغيرهم ، كخدائي نامه ، وآئين نامه ، ورستم وأسفنديار نامه ، أو الكتب التي اشتهرت بسير ملوك الفرس ، لم تكن إلا حكاية لهذه الاسطورة القديمة ، فترجمت ونقلت كلها الى العربية . وقد أخذ هذه المادة أبوعلي البلخي أولا . ثم الفردوسي فنظمها باسم « شاهنامه » . وقد عثر فيما بعد على الاساطير البهلوية فعرض عليها باحثو القرن التاسع كتاب الشاهنامه ، فعلموا أن العرب ترجموا الاساطير البهلوية بكل أمانة ، وكساها الفردوسي كذلك حلل النظم الفارسي الزاهية بكل أمانة .

والذي يستحق الذكر أن مؤرخي العرب لم تخف عليهم حقيقة هذه الاساطير . إنهم نقلوها الى العربية كما وجدوها ، ولكنهم لم يسكنوا إلى وجهتها التاريخيه ، فقصر أبو حمزة الاصفهاني (وتاريخه أقدم التواريخ العربية في الباب) بحثه على العصر الساساني ، وأغفل العصور التي سبقته قائلا بأنه لا سبيل إلى معرفة أحوالها . لأن الكتب البهلوية قد ضاعت في الدمار الذي صحب الهجوم الاسكندري(١) . ونقل اليعقوبي هذه الاساطير إلا أنه كذلك صرح بأنها ليست من التاريخ في شيء . ورفضها البيروني قائلا : « لا تقبله العقول » ومر بها ابن مسكويه في « تجارب الامم »(٢)

١ ــ تاريخ سني ملوك الارض ، طبع المانيا ، ص ٢٢ .

٢ ــ الآثار الباقية : طبع اوربا ص ١٠٠ .

أجل ، ترك لنا المترجمون العرب قصة ايرانية كبيرة باسم التاريخ أفرغها بعدهم هوميروس فارس الفردوسي ، في النظم والشعر فجعلها خالدة . ولكن كل ما ذكر في هذه القصة من الأخبار قبل هجوم الاسكندر ، ليس بتاريخ ، بل أسطورة بحتـة ، ينظر اليها التاريخ بالعين التي ينظر إلى أساطير الهند القومية ، مهابهارتا ، وراماثنا ، أو الى الأساطير اليونانيـة ، الالياذة. فكما أننا لا نجزم بشيء فى شأن أشخاص مهابهارتا ، ورائنا ، والالياذة ، كذلك لاتستطيع البت في شأن أشخاص الشاهنامه ، فلا نعلم هل لهم أصل تاريخي أوهم من نتاج الأفكار . لقد احتل أبطال الفرس القدماء ، جمشيد ، والضحاك ، ورستم ، وإسفنديار ، وسام ، ونريمان مكاناً بارزاً في فى مخيلتنا ، ولكنـا لا نعرف هل وجدوا حقاً ، أم خلقتهم أساطير فارس القومية القديمة .

وان مآسي التاريخ البشري العجيبة أن قطراً عظيماً ـ كفارس ـ قد فقد أخبار أقدم دور من حياته فى طيات أساطيره القومية ، حتى أصبحنا لانجد لها أثراً في صفحات التاريخ ! ومن الصعب القول متى تولدت مبادىء هذه الاسطورة ، وفى أي عصر اتخذت صورة اسطورة مفصلة ، إلا أن أمراً واحداً قد ظهر بكل جلاء ، وذلك أن « أوستا » سفر الزردشتيين الديني ، هو الذي هيأ المادة الأصلية لها ، ثم تطورت المادة وما زالت تتوسع حتى أصبحت اسطورة كاملة ، فنجد في أجزاء « اوستا » التي وصلت الينا ، أسماء الأشخاص الذين زعمت الاسطورة ،أنهم الملوك البيشداديون . ولعل المادة الأوليـة ظلت تتطور على الألسنة مدة طويلة ، ثم لما اتخذت شكل الاسطورة فى العصر الساساني ، اختفى في حماسها القومى العنصر التاريخي . ولما كانت الكتب البهلوية قد انعدمت فى الخراب الذي صحب حملة الاسكندر

لها ذكر فى الشاهنامه ؟ وقد ظن بعض الباحثين أن كيكاؤس الشاهنامه ، وكوروش الرواية اليونانية شخص واحد ، غير أن الاختلاف بين حياة الشخصين كبير ، ولا يدع المجال لمثل هذا الافتراض . وذهب الآخرون إلى أن كيخسرو المذكور في الشاهنامه ، هو بالحقيقة كوروش ، لان اسطورة ولادة كيخسرو تشبه اسطورة ولادة كوروش الى حد كبير . أجل ، يستحق هذا التشابه الاهتمام والبحث . ولكنه وحده لا يسوغ الجزم بوحدة الاثنين التي تتطلب توافق أحوال حياتهما أيضاً وهو لا يوجد إلى حد كبير .

مأخذ أحوال كوروش

ونحن والحالة هذه مضطرون الى الاستعانة بما كتبه مؤرخو اليونان وحدهم من أحوال كوروش . أما المأخذ الفارسى فلم يبق منه إلا الآثار الايرانية القديمة . أهمها لوحات داريوش التي كتبت بالخط المسماري والتي حل رموزها علماء القرن التاسع عشر . وأهم من كل ذلك تمثال كوروش نفسه الذي عجزت أيدي الزمان عن العبث به . وهو يعلن من الفي وخمسمائة سنة بلسانه الصامت :

تلك آثارنا تدل علينا   فاسألوا حالنا عن الآثار !

أما مؤرخو اليونان فثلاثة منهم فصلوا فيما كتبوه عن كوروش وهم هيرودوتس . وتي سياز . وزينوفن . وقد اعتبر هيرودوتس حقاً أباً للمؤرخين . فقد ولد الرجل سنة ٤٧٤ ق . م . أما تي سياز فاشتغل بالطب وكان طبيباً امبراطورياً في البلاط الفارسى . وأما زينوفن فكان فيلسوفاً يونانياً من تلاميذ سقراط وظل متصلا ببلاط ايران مدة طويلة .

مراً ، معلناً انها من بنات الوهم ، ولا يدخل في التاريخ إلا العصر الساساني(١).

ولم يجهل مؤرخو العرب ، أقوال مؤرخي اليونان ، بل كانوا يعلمون أن ما كتبه اليونان واليهود يختلف عن الاسطورة الفارسية القومية ، ولذلك قسموا تاريخ الفرس الى قسمين أساسيين : الرواية الرومية أي اليونانية ، والرواية الفارسية . فالمسعودي بعد ذكره الاختلاف بين الروايتين ، يقول في كتابه « التنبيه والاشراف » إني صرفت النظر عن الرواية اليونانية ، لانها تخالف الرواية الفارسية ، ولانه ينبغي أن يؤخذ تاريخ الفرس من لسانهم ، لان صاحب البيت أدرى بما فيه (٢) . ولكن ، وا أسفا ! خاب أمل المسعودي . لان الفرس كانوا قد فقدوا تاريخهم كلية !

أما أبو الريحان البيروني فلم يقتنع ذهنه الوثاب الى البحث والتحقيق بالرواية الفارسية ، فجمع بين الروايتين في كتابه « الآثار الباقية » ووضع جداول لاسماء ملوك الروايتين ، فنجد في جداول الرواية اليونانية جميع الاسماء الحقيقية التي ذكرها مؤرخو اليونان بصدرها اسم كوروش . اما جدول الرواية الفارسية ، فلا يعدو عما ذكره الفردوسي في الشاهنامه من الاسماء (٣) .

وقد بذل علماء العصر الحاضر جهدهم في الجمع والتطبيق بين الروايتين فلم يفلحوا . ومباحث المستشرق الالماني اسبيغل في الباب تستحق المطالعة والدرس ، إلا أنه عجز عن التطبيق بين الروايتين .

وأهم مسألة تشغل بال الباحث ، هي شخصية كوروش ، فنتسائل هل

---

١ ـ تجارب الامم ، (تذكار غب ص ٤ .

٢ ـ طبع اوربا س ١٠٥ .

٣ ـ الصفحة ١٠٢ .

بكورش وخيارشا . وقد قبله امراءفارس حاكما عليهم . وبعد برهة من الزمن تم له الاستيلاء على مملكة مادي بدون صعوبة . هكذا تشكلت من قسمي ايران مملكة متحدة لأول مرة في التاريخ . ونشأت في آسيا الغربية امبراطورية جديدة .

ثم بدأت فتوح كورش المتوالية ـ فتوح ليست لسفك الدماء جرياً وراء الحرص على جمع المال وحب القهر بل فتوح الأمن والحق لبسط العدل للمظلومين والأخذ بأيدي المقهورين . فلم تمض على ارتقائه العرش اثنتي عشرة سنة حتى سقطت أمامه جميع الممالك الآسيوية من البحر الاسود الى صحراء بلخ !

وقد كسوا حياة كورش الاول هذا حلل الاساطير كما هو شأن اكثر الشخصيات العظيمة في العالم . وزعموا له نشأة غريبة في ظروف غريبة نادرة . وقد حكى لنا هيرودوتس وزينوفن هذه الاسطورة مفصلة فقالا إن جده من قبل أمه وهو استياغس عزم على قتله قبل ولادته فأصدر أمره بذلك إلا أن الحكمة الالهية فتحت للمولود قلب أمير من امراء البلاد فنشله بطريقة عجيبة من براثن الموت . وقد اقفلت على وجهه أماكن التربية الملكية ففتحت له المشيئة الازلية أبواب المدرسة الفطرية . وأخذه فضاء الجبال والصحارى يربيه في حجره حتى أتت الساعة التي ظهرت فيها مواهبه العظيمة وفضائل سيرته الرشيدة فاشتهر أمره وانتشر صيته وعرفته بلاده فكان له الآن أن ينتقم لنفسه من أعدائه الذين كادوا له وحاولوا هلاكه . ولكنه آثر العفو على النقمة فصفح عنهم أجمعين حتى أن جده القاسي الفظ استياغس لم ينله من قبله سوء !

وقد صدقت الالواحات بعض ما كتبه هؤلاء المؤرخون كل التصديق فمثلا شجرة نسب كورش التي ذكرها هيرودوتس وزينوفن توجد بعينها في لوحة داريوش وكذلك ختم كورش الذي عثر عليه في حفريات بابل يلقي الضوء على بعض التوارخ والسنين .

فارس وميديا سنة ٥٦٠ ق . م

كانت بلاد ايران منقسمة قبل الميلاد بخمسمائة وستين سنة الى قسمين : فكان القسم الجنوبي يسمى بفارس والقسم الشمالي بمادى . وقد نطق بها اليونان « ميديا » والعرب « ماهات » .

ولما كانت الحكومتان الأشورية والبابلية تملكان سلطاناً عظيماً بقيت فارس بقسميها تحت ضغطها . وكان يحكمها أمراء القبائل . ثم تخربت نينوى في سنة ٦١٢ ق . م . وقضي على السلطان الأشوري . فتحرر امراء ايران الشمالية . وهي مادى من نفوذه وبدأت تتكون مملكة محلية بها . ووجدت القبائل الفارسية كذلك الفرصة لرفع رأسها ، فتأسست في بلادها مملكة اخرى باسم « انشان » غير أن المملكتين لم يكن لهما من الحول ما يذكر وظلتا مجهولتين لاسيما لأن بابل بعد خراب نينوى دخلت في دور جديد من النشاط والقوة ودوخ ملكها نبو خذ نصر (بخت نصر) آسيا الغربية كلها . فبقيت المملكتان منزويتين لا يقام لهما وزن .

اسرة هخامنشي وظهور كورش

ثم ظهرت في سنة ٥٥٩ ق . م شخصية فذة في ظروف غريبة ، التفتت أنظار العالم كله اليها فجأة . كان صاحب هذه الشخصية شاب من اسرة هخامنشي اسمه كورش الذي سماه اليونان بسائرس والعرب

هجومه الثاني في الشرق

وكان هجومه الثاني في الشرق لان القبائل الهمجية من غيدروسية وبكتريا قد تمردت فلم يكن له مناص من السير اليها لسلامة البلاد وحفظ نظامها . أما غيدروسيا فهي البلاد الواقعة بين ايران الجنوبية والسند . وهي التي تسمى الآن بمكران وبلوجستان . أما بكتريا فهي بلخ . وقد ذكر مؤرخو اليونان مهمته هذه إلا أنهم لم يبينوا تاريخها . والمظنون أنها كانت بين سنة ٥٤٠ وسنة ٥٤٥ ق . م . ووصول كوروش الى بلخ كان بمثابة وصوله الى نهاية الشرق لأنه يكون خرج من ايران الجنوبية ، فوصل الى مكران ومنها الى كابول مارا ببلوجستان . ومن كابول توجه الى بلخ . والغالب أنه فتح بلاد السند كذلك في هجومه هذا . وقد سمى الفرس السند باسم الهند فنجد في لوحة داريوش اسم « الهند » بين اسماء البلاد الثمانية والعشرين المفتوحة التي ذكرها فيها .

فتح بابل

وفي نحو هذا الزمن (سنة ٥٤٥ ق . م .) رجى منه امراء بابل واكابرها بأن يقدم الى مدينتهم وينجيهم من عسف الملك بيلشازار .

وقد قامت الامبراطورية البابلية على انقاض نينوى المخربة واخذت تتوسع بسرعة في سائر الجهات . وكان بنو خذ نصر الذي سماه العرب ببخت نصر امبراطوراً قاهراً وملكا جباراً في دورها الجديد فانتشرت سطوته وعمت هيبته الى القريب والبعيد واغار على فلسطين والشام مراراً وقضى بغارته الأخيرة ليس على البقية الباقية من حكم اليهود بل على حياتهم القومية كذلك . وقد كانت هذه المأساة من أفجع مآسي التاريخ القديم

هجومه الاول وفتح ليديا

وقد بادره بعد ارتقاء العرش كروسس ملك ليديا واتفقت كلمة مؤرخي اليونان على أن كروسس هو الذي بدأه بالعداء وأن كوروش حمل السيف مضطراً اليه وأن دفاعه انتهى على النصر المبين . وهكذا نجحت مهمته الاولى في الغرب .

كانت ليديا واقعة في القسم الشمالي من آسيا الصغرى . وهو يسمى الآن بأناضول حيث مستقر الحكومة التركية الحاضرة . وكانت حكومة هذه البلاد إذ ذاك يونانية الصبغة . انتصر كوروش في الحرب وكانت عاقبة البلاد المقهورة في ذاك العصر : الدمار والهلاك على أيدي الفاتحين . الا أن مؤرخي اليونان كلهم يشهدون بأنه لم يقع شيء من هذا بل عامل كوروش المفتوحين بكل سخاء وجميل حتى أنهم لم يشعروا بأنه كانت هناك حرب بساحتهم ، إلا ما رواه هيرودوتس من أمر كروسس الملك المغلوب فقال إن كوروش أمر بادي ذي بدء بأن يبنوا مصطبة من الحطب ويشعلوها بالنار بعد أن يقعدوا كروسس فوقها . ولعله قصد بذلك أن يمتحن شجاعته وثباته أو يبطل أوهام البلاد الوثنية . ولذلك لما رآه جالساً غير هياب ولا وجل نسخ أمره وعفى عنه فعاش بكنفه في بحبوحة العيش والعز التام الى آخر أيامه . وقد علمت شعوب العالم من هذه الحروب أن كوروش ليس أنه فاتح جديد فحسب بل معلم أخلاقي جديد كذلك يؤسس - خلافاً لما كانت عليه الملوك والحكومات من الأخلاق والسيرة - امبراطورية جديدة على أخلاق سياسية جديدة .

غوب رياس كان يصحب جيوش كوروش ويهديهم الطريق فما كان منه الا ان حفر جداول من الدجلة فوق المدينة فتحول مجرى النهر ويبس ما كان يدخل منه الى المدينة فانفتح الطريق للغزاة من داخل النهر فدخل منهم جمع عظيم المدينة في احدى الليالي واستولى عليها ·

نهاية أسر اليهود وأمر اعادة بناء الهيكل وعقيدة اليهود القومية في هذا الشأن

تقول لنا أسفار اليهود المقدسة إن ظهور كوروش وفتحه بابل كان معجزة من عند الله وذلك لينتهي أسر اليهود الذي دام سبعين سنة · وليعاد بناء يروشلم · فيزعمون ان هذا كله وقع كما أخبر به يشعياه النبي قبل وقوعه بمائة وستين سنة ويرمياه النبي قبل ستين سنة ·

تكون تاريخ اليهود من خير معتقداتهم الدينية فكتاب العهد القديم ليس كتاب شريعتهم فقط بل هو النبع لتاريخهم أيضاً · وقد خلق اليهود تصوراً خاصاً لتاريخ العالم وعضدوه بالوحي والنبوة · ولذلك أصبحت كل رواية من العهد القديم تصوراً اساسياً لعقائدهم الدينية · وهم يؤمنون بها كل الايمان · فتقول هذه الاسفار ان جميع تلك النبوءات عرضت على كوروش بعد فتح بابل فقبلها بقبول حسن وتأثر بها أيما تأثر· فما كان منه إلا أن أصدر أمره بأن تعاد الى اليهود جميع الأواني المقدسة من الذهب والفضة التي نهبها بخت نصر وجلبها من هيكل يروشلم ، وسمح لهم بالرجوع الى فلسطين ليعمروا مدنهم المخربة ويبنوا هيكلهم المتهدم . فتقول صحيفة عزرا : « أعلن الملك كورش بعد فتحه بابل في سائر مملكته قائلا ، ان رب السماء قد وهبني جميع بلاد العالم ، وأمرني أن أبني لعبادته هيكلا في

لا تزال تردد صدى النوح والبكاء عليها صفحات العهد القديم وليست أسفار حزقيال ويرمياه ويشعياه الانبياء إلا رثاء يفتت الاكباد على دمار الحياة القومية لشعب كبير . وقد كانت الاغارة البابلية سيلا مخيفاً يحمل معه الهلاك فوق الهلاك فخربت مدن اليهود ودمرت هيكلهم المقدس وعفت على آثارهم الدينية والقومية . وليس هذا فحسب بل ضاعت من جرائها اكبر ثروته الدينية وهي التوراة الى الأبد . وقد اكلت سيوف الفاتحين جمعاً عظيماً من اليهود وتشرد جمع عظيم منهم في نواحي العالم أما الباقون فوقعوا في الاسر وساقهم الجيش البابلي المنتصر كالبهائم الى بابل . فلم يبق في يرشليم الا الانقاض واصبح بقية السيف من اليهود يعيشون في بابل عيشة الاسر والذل . وقد دام هذا الحال سبعين سنة .

ثم ضعفت شوكة بابل بعد موت جبارها بخت نصر اذ لم يخلفه رجل قدير محنك . وكان امراء البلاد هم سدنة المعابد فأقاموا نابونيدس مقام الملك المتوفي ووضع مقاليد الحكم في يد بيلشازار الذي قيل عنه ان الظلم والفسق والشر كان قد تجسم فيه فلقي الاهالي منه الامرين وتنغصت حياتهم بسببه وكان صيت كوروش قد انتشر في اكناف العالم ولهجت الالسن بمحامده فما كان من اهالي بابل الا أن أرسل اكابرهم الدعوة اليه ليقدم الى بابل وينجيهم من العسف والعذاب .

وقد أجمع المؤرخون على أن بابل كانت إذ ذاك أحصن مدينة على وجه الارض . وبلغ سورها من المتانة والمنعة والطول والعرض مبلغاً جعله من عجائب الدهر وخوارقه وفي مأمن من سلاح عصره . وعلى رغم ذلك لبى كوروش دعوة البابليين فقام من مكانه وما زال متوغلا فاتحاً حتى وصل امام اسوار المدينة . قال هيرودوتس ان والياً سابقاً لبابل يدعى

السبعينية (١) . والتي لم توجد في النسخة المصرية وفى النسخه الفلسطينية .

هجوم الثالث فى الشمال

ويخبرنا مؤرخو اليونان عن هجوم ثالث قام به كورش لاصلاح بعض بلاد الحدود من مادى وتقويتها . ولابد أن يكون هـذا الهجوم فى جهة الشمال ، لان مادى هي ايران الشمالية التي تتاخم الجبال الشمالية الفاصلة بين بحر الخزر والبحر الاسود . وقد سميت هذه البلاد فيما بعد بالقوقاز وسماها الفرس بـ (كوه قاف) . وبلاد قوقاز الحاضرة واقعة فى وديان هذه الجبال وقد وصل كورش بهجومه هذا الى نهر ، نزل عليه جيشه ، وسمي النهر من ذلك الحين بـ (نهر سائرس) اي نهر كورش . ولا يزال يدعى بهذا الاسم الى الآن . ومما لا ريب فيه أنه فى هجومه هذا صادف قوماً من سكان الجبال ، شكوا اليه أمر يأجوج ومأجوج ، فأمر ببناء سد حديدي كما سنراه مفصلا في هذا الكتاب . ومما يؤسف له أن مؤرخي اليونان لم يعتنوا بتدوين حوادث هذا الهجوم .

وفاة كورش سنة ٥٢٩ ق . م

لقد لهجت الألسنة فى الشرق والغرب بعظمة كورش العـدل وقوته بأس . لأنه لم يبق على وجه البسيطة أحد يعارض هـــذه الامبراطورية الجديدة . وكان كورش وحده امبراطور العالم كله ذلك الحين . وكان هذا الأمر اعجوبة العصر القديم . لقد كان الرجل قبل أربع عشرة سنة راعياً

---

(١) الترجمة السبعينية قام بها اثنان وسبعون عالماً من أحبار اليهود بأمر ملك مصر البطليموسي . فلادلفس (من سنة ٢٨٤ الى سنه ٢٤٧ ق . م) ويشار الى هذه الترجمة بالاعداد اللاتينية .

يروشلم الواقعة بأرض يهوديا ، فعلى كل من هو من شعب الرب هنـا أن يرحل الى يرشلم ، ويبني بها بيت الرب وعلى جميع الناس في مملكتي أن يساعدوا اليهود في عملهم ، وأن يحضر لهم كل ما يحتاجون اليه من الذهب والفضة وغيرها » .

فعاد بعـد اعلان كورش خمسون الف اسرة يهودية من بابل الى فلسطين ، وباشروا تعميرها هي والهيكل ، ولكن العوائق كانت تحول بين العمل ، فتقول صحيفة عزرا ان نائب الملك داريوش بالشام وفلسطين ، تدخل في العمل وأوقفـه ، فرفع اليهود شكواهم الى البـلاط الملكي فنالت القبول ، وأصدر دارايوش أمراً جديداً وثق به أمر كورش . وقـد ظهر النبي عزرا في زمن أردشير ، فجاء بقافلة يهودية ثانية من بابل الى فلسطين وكتب التوراة من جديد . وكان عمل بناء الهيكل وقف مرة اخرى ، فأصدر أردشير بسعي النبي حجى أمراً حديداً في هـذا الشأن ، وهكذا تم بناء الهيكل .

وتقول الرواية اليهودية القومية عن دانيال وعزرا ونحمياه وحجى بأنهم كانوا مقربين الى الملوك كورش وداريوش وأردشير . ويعاملون باحترام خاص في بلاطهم . وقالوا عن أردشير إن فتاة يهودية تسمى « أستر » أصبحت ملـكة له ، وان بعض امراء البلاط لما دبر الفتنة ضد اليهود حالت هي دونها وخلصتهم من المؤامرة . فيوجد بين صحف العهد القديم التي تسمى بـ (إبوكريفا) صحيفة أستر كذلك ، والمقصود من صحف (إبوكريفا) تلك الصحف التي ضمت الى ترجمة العهد القديم اليونانيـة

وقد سمي كورش بكره بكمبوشيا ، واضيف اليه اللقب الملكي (أهشورش) وظل يستعمل للملوك بعده ، إلا أن اليونان حرفوه كذلك فقالوا (اهاسورس) والعرب (اخشورش) .

ارتقى كمبوشيا العرش بعد ابيه كورش وهاجم مصر في سنة ٥٢٥ ق . م واستولى عليها ، ووصلت الأنباء وهو في مصر بأن أهل مادى شقوا عصا الطاعة وأن رجلا يدعى (غوماتا) زعم بأنه أخ الكمبوشيا وأن اسمه (برديه) ولذلك يستحق الملك ، وقد سمى اليونان برديه هذا بسمرديز . والحاصل لما علم كمبوشيا بالثورة ، قفل من مصر قاصداً بلاده ، ولكنه توفى بالشام ، وقيل مات غيلة .

ولما لم يبق من ولد كورش بعد هلاك كمبوشيا أحد ، توج امراء البلاد ابن عم له ، وهو داريوش فتغلب هـذا على الثوار وقتل المدعي (غوماتا) ووصل بملكه الى الدروة العليا من العز والمجد .

اما داريوش فكان والده غشتاسب أو هستاس بز على نطق اليونان ولكنه ذكر في (اوستا) باسم (وشتاسب) .

وخلف داريوش ارتخششت الذي سماه اليونان بـ (ارتارركس) ، والعرب بـ (اردشير) . هؤلاء الملوك الأربعة ، هم الذين نجد أسماءهم في أسفار اليهود ، أي كورس ، وأخشورش ، وداريوش . وأردشير . وقد بدأ اليهود باعادة بنـاء هيكل يروشلم في عهد كورش وتمموه في ايام اردشير .

الهجوم الثاني على بابل ونهاية ملكها

كان كورش في فتوحه سمحاً كريماً كما رأينا . كان يفتح البلاد بدون

مجهولا ، يعيش في الغابات الجبلية ، فاذا هو يملك الآن وحده جميع الممالك التي مثلت عظمة الامم وشوكتها لقرون ، فأصبح وحده ملجأ يلجأ اليه سائر الشعوب من الساحل الغربي لآسيا الصغرى الى صحراء بلخ !

عاش كورش بعد استيلائه على بابل عشر سنين وتوفي في سنه ٥٢٩ ق . م . وان آثار ايران القديمة التي نقبت في هـذا العصر ، تشمل على مدفنه كذلك ، وهو بناء مربع جميل من المرمر . وقد ثبت بظهور هذه المقبرة أن دفن الأموات كان شائعاً بين الزردشتيين القـدماء ، وعلى الاقل كان الملوك وأعاظم الناس منهم يدفنون ، كما يظهر ذلك ايضاً من العثور على قبر داريوش ، وكانت العامه تسمي هذا القبر بنعش رستم (أدخمه رستم)

سلف كورش وخلفه

يستحسن الآن أن نذكر أسماء سلف كورش وخلفه الأقربين ، لأن الاختـــلاف في النطق بها في اللغتين : البهلوية واليونانية ، أوقع بعض المؤرخين في الخطأ .

إن شجرة نسب كورش التي ذكرها هيرودوتس وزينوفن ، قد صدقتهـا لوحة داريوش ، فـكان والد جد كورش ، هخامنش الذي دعاه اليونان بـ (ايكي مينس) . وقـد أجمع المؤرخون ولوحة داريوش على أن ملوك مادى وفارس كانوا ينتسبون اليه ، وقد حملوا اسمه ، اسماً لاسرتهم ، أي سموا اسرتهم بـ (هخامنشى)

وولد لهخامنش ابنه (شائش بيز) الذي حرف اليونان اسمه ، فقالوا (تائز بيز) وولد لهذا كمبوشيه ـ الذى اصبح في اليونانية (كم بى سر) ، وفي العربية كمبوشيا (او قمبيز) وولد لكمبوشيا صاحبنا (كورش)

أن يقضي على حكوماتها المحلية ، أو أديانها ، ودساتيرها ، وعوائدها ، بل كان يكتفي بأخذ الخراج ووضع المراقبة العالية . هـذا كان ديدنه وهذا ما فعله ببابل ، فترك فيها نائبه . وعاد بنفسه قافلا الى بلاده . وكانت بابل تابعة لامبراطورية كورش ، وتتمتع باستقلالها الداخلي ، وكان لها ملكها .

يقول مؤرخو اليونان إن هذه الحالة دامت نحو عشرين سنة ، حتى توفي كورش واشتغل داريوش بثورة مادى . فرأى ملك بابل فرصة للتحرر من التبعية الفارسية ، فأعلن استقلاله التام . وعلى اثر ذلك نهض داريوش اليه مهاجماً . وقد دون مؤرخو اليونان حوادث هـذه الحرب . فقالوا إنه كما نال كورش النصر التام باعانة أمير بابلي ، اسمه غوب رياس ، كذلك تم لداريوش الفتح بحيلة رجل محاصر دخل المدينة . حيث دبرت المؤامرة ضد الملك ، فقتل بغتة وفتحت أبواب بابل للمغيرين .

ونجد في صحيفة دانيال صورة أخرى لهذا الحادث نفسه مصبوغة بصبغة خاصة . فقد قالت الصحيفة . إن الليلة التي سبقت ليلة القتل ، أقام فيها الملك حفلة سرور وحبور . وأمر ساقيه أن يقدم اليه الخمر في أقداح الهيكل المقدسة المنهوبة من يروشلم ، فامتثل الساقي بأمره ، فلما رفع الملك القدح الى فيه اذا هو يرى يداً غيبية تمتد الى الجدار وتكتب عليه العبارة الآرامية : (منى منى تقيل . وفرسين) فدهش الملك برؤيته هذه وامتلأ رعباً . فطلب السحرة والعرافين وأمرهم بشرح العبارة ، ولكنهم عجزوا عنه . وأخيراً ذكرت له الملكة اسم دانيال ، فدعاه اليه ، فشرح له العبارة قائلا . إنه إنذار من قبل الله اليك بأن أيامك قد انتهت ، « منى منى » اي عدت أيامك ، و « تقيل » أي وزنت فعلم وزنك ، و « فرسين » أي زالت دولتك وآلت الى فارس ! فلم يمض على هـــذا الكلام يوم إلا وذبح

ذي القرنين صورة مطابقـــة للأصل تماماً ، فقد بدأ حياته في ظروف أحاطت بها الحوادث المحيرة للعقول ، حتى سبكتها في قالب اسطورة . إنه لم يولد بعد ، إلا أن والد أمه أصبح عدواً لدوداً له ، يريد الفتك به ، ولكن الرجل الذي انتدبه لقتله ، امتلأ قلبه عطفاً وحناناً عليه . فاختطفه من براثن الموت ، ثم إنه ينشأ في الغابات والصحارى والجبـــال . ويعيش عيشة الرعاة المهملين المجهولين ، فبينما هو كذلك إذ تتغير الأحوال بغتة ، وتقوده الى ساحات الجد والعمل ، مشمراً عن ساعديه ، فيخلو له عرش مادي بدون مزاحمة ! لا ريب أن سير حوادث الحياة العادية لا يكون هكذا . إنه حقاً أمر فذ ، نادر ، عجيب !

وآتيناه من كل شيء سببا

ثم قال : « وآتيناه من كل شيء سبباً » ، أي وهبناه كل الوسائل للعمل والنجاح . انظر كيف تطابق هذه الكلمات من الآية ، الأمر الواقع ؟ إن الشاب الذي كان بالأمس راعياً مجهولا . قد استوى اليوم على عرش الملك ، وملك جميع ما يحتاج اليه من وسائل العمل بدون حرب ونضال ! يقول مؤرخو اليونان ان جميع قبائل فارس قد اتفقت على طاعته من تلقاء نفسها . وظهرت في التاريخ أول مرة المملكة الفارسية المادية المتحدة . ثم احتشدت له جيوش عظيمة لم تملكها مملكة من قبل .

المهمة الاولى الغربية

٢ — ثم ذكر القرآن لذي القرنين ثلاث مهمات ، كانت الاولى منها الى « مغرب الشمس » ، والغرض الواضح من « مغرب الشمس » الجهة التي نرى الشمس تغرب نحوها ، أي جهة الغرب ، وليس معنى ذلك مكان

تمثال كورش نفسه لشهادة حسية ملموسة على صحة ما نقول . وبقي الآن أن نرى هل الحلقة التي وصلها له القرآن توافقـه أم لا ؟ وسنرى أنها توافقه كل الموافقة .

وقد سبق لنا في بدء المقال أن أتينـا على خلاصة ما قاله القرآن في شأن ذي القرنين ، ويحسن بنا أن نعيد النظر إليها مرة أخرى .

انا مكنا له في الارض

١ — إن أول ماوصف به القرآن ذا القرنين ، هوقوله : « إنا مكنا له في الأرض ، وآتيناه من كل شيء سبباً » (٨٤) . أي أننا منحناه السلطان والتمكن في الملك وهيأنا له جميع الوسائل والمعدات التي كان يحتاج اليها لتدعيم حكمه وإتمام فتوحه . ومن أسلوب القرآن أنه كلما ينسب نجاح شخص وسلطانه الى الله مباشرة ـ كما نراه في هذه الآية ـ يريد بذلك أمراً عظيماً قد وقع خلاف المعهود ، ولذلك صار هبة من الله ورحمة خاصة من لدنه . فمثلا نرى في سورة يوسف أنه يقول : « وكذلك مكنا ليوسف في الأرض » (١٢:٥٦) ، أي جعلنا يوسف متمكناً في أرض مصر ، وذلك لأن يوسف عليه السلام وصل الى حكم مصر بطريقة عجيبـة غير معهودة ، ولذلك نسب الى الله ليبين أنه كان من نعم الله الخصوصيه عليه أن أخرجه من السجن وأجلسه على عرش البلاد . ولما كان اسلوب الـكلام عن ذي القرنين نفس هذا الاسلوب ، كان لزاماً أن يكون وصول ذي القرنين كذلك الى مقام الملك والسلطان في ظروف غير عادية ، فيكون منحة خصوصيه من عند الله .

ولما نرى من هذه الناحية الى كورش ، نجد كأن مصدراً صور

فاضطر كورش الى رد سيف المهاجم الى نحره ، فخرج من عاصمة مادي ، هغمتانا (همدان) ، وانقض كالصاعقة على خصمه ، ولم يطل النضال بل سقطت مملكة ليديا كلها ساجدة أمام قدميه بعد موقعتين : بتريا وسارديز ¹

وقد أتى هيردوتس على تفاصيل هذه الحرب ، وهي ممتعة ، فقال ، كان انتصار كورش سريعاً جداً لم يتوقعه أحد ، فما مضت على معركة بتريا أربعة عشر يوماً إلا وخضعت عاصمة ليديا المنيعة ، ووقف ملكها كروسس أسيراً بين يدي الفاتح ¹

وأصبحت آسيا الصغرى كلها من بحر الشام الى البحر الأسود خاضعة لكورش . ولكنه ما زال يتقدم ويتوغل . حتى بلغ آخر المغرب . أي الى ساحل البحر . وهنا – طبعاً – وقفت أقدامه . كما وقفت بعد اثني عشر قرن أقدام موسى بن نصير على الساحل الشمالي من أفريقية . احتاز كورش من هغمتانا الى ليديا ألفاً وأربعمائة ميل ، وكان لا يقدر على المشي فوق أمواج البحر . فوقف . فاذا هو يرى الشمس تغرب في عين الخليج الساحلي . وكان له هذا المقام ، بلا ريب ، مغرب الشمس ، أي نهاية المغرب .

وجدها تغرب في عين حمئة ووجد عندها قوما

لنضع خريطة الساحل الغربي لآسيا الصغرى أمامنا . نرى فيه معظم الساحل قد تقطع في خلج صغيرة ، لاسيما على مقربة من أزمير حيث اتخذ الخليج صورة عين . كانت سارديز على مقربة من الساحل الغربي ولا تبعد كثيراً عن أزمير الحاضرة . فلنا أن نقول ان كورش لما تقدم بعد استيلائه على سارديز وصل من ساحل بحر ايجه الى مكان قريب من

غروب الشمس حقيقة ، إذ لا يوجد ولا يمكن أن يوجد مكان كهذا ، وان كل اللغات لتعبر عن الغرب والشرق بـ « مغرب الشمس » ، و بـ « مطلع الشمس » . ونجد في العهد القديم أيضاً تعبيرات كهذه ، فنقرأ مثلا في صحيفة زكريا : « يقول رب الجنود إني أنجي شعبي من البلد الذي تطلع منه الشمس ، ومن البلد الذي تغرب فيه الشمس » (٨:٧) . أي أنجي بني اسرائيل من مصر وبابل ، إذ مصر لفلسطين بلاد المغرب ، وبابل بلاد المشرق . هذا أمر واضح لا يحتاج الى البحث إلا أن أمراً جلياً كهذا أصبح معقداً لولع المفسرين بالعجائب . فتوهموا أن ذا القرنين وصل الى المكان الذي تغرب فيه الشمس حقيقة !

والحاصل إن مهمته الاولى كانت إلى الغرب . ولا ريب أنها كانت مهمة ليديا . لأنك إن مشيت من ايران الشمالية الى آسيا الصغرى . تكون قد مشيت نحو الغرب تماماً .

وقد رأيت آنفاً أن كورش ما كاد يضع تاج فارس ومادى على رأسه ، حتى فاجأه ملك آسيا الصغرى ، كروسس ، بالهجوم . تكونت مملكة آسيا الصغرى ، التي عرفت باسم ليديا ، في القرن السابق للحوادث التي نحن بصددها ، وكانت عاصمتها مدينة (سارديز) . ولقد سبقت حروب بين مادى وليديا قبل إرتقاء كورش العرش . وأخيراً صالح والد كروسس ، جد كورش ، استياغس ، ولأجل تصميم الاتحاد ، تصاهرت الاسرتان المالكتان ، ولكن كروسس داس كل هذه العلاقات والقرابات . كبر عليه أن تنشأ امبراطورية عظيمة باتحاد فارس ومادى تحت زعامة كورش الناجحة ، فحرض أولا حكومات بابل ، ومصر ، واسبارتا عليه ثم استولى باغارة فجائية على بلدة (بتريا) الواقعة على الحدود .

البلاد التي تسمى الآن بمكران وبلوجستان .

المهمة الثالثة الشمالية وسد يأجوج ومأجوج

٤ — وقام بهجوم ثالث على بلاد جبلية كانت تغير عليها من ورائها يأجوج ومأجوج . وهنالك بنى السد . كانت هذه مهمته الثالثة ، وصل بها تاركا على يمينه بحر الخزر الى جبال القوقاز حيث وجد مضيقاً بين جبلين منها .

ذكر القرآن هذا الخبر قائلا : « حتى إذا بلغ بين السدين ، وجد من دونهما قوماً لا يكادون يفقهون قولا » ، أي أنهم كانوا جبليين متوحشين حرموا من المدنية والعقل والفهم .

والمقصود بسدين ، مضيق في جبال القوقاز . وانك تجد على يمين القوقاز بحر الخزر الذي يسد طريق الحافة الشرقية منها . وعلى اليسار البحر الأسود الذي يسد طريق الحافة الغربية . وترى في الوسط سلسلة جبالها الشاهقة التي صارت جداراً طبيعياً ، فلم يكن هنالك منفذ للمهاجمين من الشمال إلا مضيق وسطى فى هذه الجبال يجتازه المهاجمون ويشنون الغارات على البلاد الواقعة وراءه . فبنى كورش فى هذا المضيق سداً حديدياً وأقفل به الطريق على المغيرين . ولم يأمن أهل سهول قوقاز وحدهم بهذا السد بل أصبح السد باباً مقفلا منيعاً لسلامة سائر بلاد آسيا الغربيه فأمنت جميع الشعوب القاطنة فى آسيا الغربية وفي مصر من جهة الشمال .

انظر الخريطة تجد آسيا الغربية تحتها وبحر الخزر فوقها والبحر الاسود على يمينها وقد سدت جبال القوقاز ما بين البحرين . فهذان البحران وسلسلة جبال القوقاز أوجدت سداً طبيعياً يمتد الى مئات من الاميال .

أزمير ورأى الساحل قد اتخذ صورة تشبه العين وكان الماء قد انكدر من وحل الساحل فرأى الشمس تغرب مساء في هذا العين . هذا هو ما عبر عنه القرآن بقوله « وجدها تغرب في عين حمئة » أي انه تراءى له كأن الشمس تغرب في بقعة كدرة من الماء .

ومن المعلوم أن الشمس لا تغرب في مكان ما ولكنك إن وقفت على ساحل بحري لرأيت الشمس كأنها تغرب رويداً رويداً في البحر .

المهمة الشرقية

٣ — وكانت مهمته الثانية الى مشرق الشمس أي في جهة الشرق فهيرودتس وتي سياز كلاهما يذكران هذه المهمة الشرقية التي قام بها كورش بعد فتحه ليديا وقبل استيلائه على بابل . وقالا : « ان طغيان بعض القبائل الهمجية الصحراوية حمله على القيام بهذه المهمه » . وهــذا يطابق ما قاله القرآن : « حتى اذا بلغ مطلع الشمس وجـدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا » . اي انه لما وصل الى نهاية الشرق رأى الشمس تطلع على قوم ليس لديهم ما يستترون به عن قيظها . يعني أنهم كانوا من القبائل الرحالة التي لا تسكن المدن ولا تبني لها البيوت .

قبائل الشرق الرحالة

من كانت هذه القبائل الرحالة ؟ يظهر من بعض ما صرح به مؤرخو اليونان أنهـا كانت قبائل بكتريا أي بلخ . لو نظرنا في الخريطة لوجدنا بلخ بمثابة الشرق الأقصى لايران لان الأرض بعدها ترتفع وتسد الطريق والظاهر ان قبائل غيدروسيا كانت اخذت تسعي في الفساد على حدوده الشرقية فقام من مكانه حتى وصل بلخ فاتحاً . والمقصود من غيـدروسيا

فماذا فعل ذو القرنين ؟ إنه قال : بل اعاملهم بالحق لأني لست من الذين يميلون الى الظلم : « أما من ظلم فسوف نعـذبه ثم يرد الى ربه فيعذبه عذاباً نكراً وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسراً » . أي لا اعاقبهم على ما سبق لهم من الشر بل أعفو عنهم . أجل ، من يأت بمكر بعد هذا فسينال جزاء عمله ثم يرد الى الله ليعاقبه بما هو أشد وأدهى . وأما من يعمل الخير ويطيع امري فأجزيه بالحسنى . هذا هو اجمال ما فصله مؤرخو اليونان من سيرة الرجل وقد قبله مؤرخو العصر كحقيقة تاريخية لا مراء فيها .

وقد اتفقت كلمة مؤرخي اليونان على أن ما فعله كورش بعد فتحه ليديا لم يكن العدل الصراح فحسب بل كان اكثر من ذلك . كان كله عدلا لانهم كانوا جناة مجرمين ولكنه لم يقف عند حدود العدل بل صعد الى المقام الأعلى من الانسانيـه الفاضلة . يقول هيرودوتس : امر كورش جنوده بأن لا يرفعوا السلاح على أحد غير المحاربين من الأعداء ومن يخفض رمحه منهم فلا يقتلوه . اما كروسس الملك المنهزم وأمر في شأنه أن لا يؤذيه احد حتى ولو هاجمه بسلاحه وقد أطاع الجيش أمره طاعة تامة حتى لم يشعر عامة الأهالي بويلات الحرب . تغير الملك والسلطان ولم تتغير حالة الاهالي .

وهنا يجب أن لا ننسى بأن انتصار كورش كان هزيمة منكرة لآلهة اليونان ، لأنها لم تقدر على صون عابدها الخاص كروسس من المحنة الكبرى قال المؤرخون ، استخار كروسس الآلهة قبـل إقدامه على الهجوم ، وإن هاتف « دلفي » قـد بشره بالفتح المبين ، ولما انعكست الآية وانكسر كروسس ، استاء اليونانيون واخذوا يأولون ويحاولون أن يجعلوا من هذه

ولم يكن هنالك خلل فى هذا الجدار الهائل يتقدم منه شعوب الشمال إلا ذلك المضيق فعمد كورش اليه وقفله ببناء سد حديدي ، لا يتسلق عليه ولا ينقب فيه . فكان السد بمثابة باب قد احكم إقفاله بين آسيا الغربية والبلاد الشمالية .

أما القوم الذين وجدهم ذو القرنين هنالك ، وكانوا خلواً من العقل ، فيحتمل أن يكونوا القوم الذين ذكرهم اليونان باسم « كولشى » وذكروا فى لوحة داراپوش باسم « كوشيا » . هؤلاء الذين شكوا الى كورش هجمات يأجوج ومأجوج ، ولما كانوا مجردين من الحضارة وصفهم القرآن بقوله « لا يكادون يفقهون قولا » أي لا يفهمون الكلام .

أوصاف ذى القرنين الاخلاقية فى القرآن

٥ — والآن تأتي أمامنا أوصاف ذي القرنين الأخلاقية التي ذكرها القرآن . وأولها عدله وحبه لرعيته . لنرى الى أي حد ينطبق هذا الوصف على حياة كورش ؟

يخبر القرآن أن الله قال له فى شأن الذين وجدهم في الغرب « إما أن تعذبهم وإما أن تتخذ فيهم حسنا » . أي أصبح هؤلاء في قبضة يدك فلك أن تعاقبهم أو تعاملهم بالحسنى ، لاشك في أن هؤلاء كانوا الشعب اليوناني فى ليديا ، هاجمه ملكها كروسس بدون حق ناسياً العهود والقرابات ولم يكتف بهجومه ، بل حرض عليه جميع الدول القوية المعاصرة . والآن بعد أن خاب سعيه وعاد كيده فى نحره ، كان لكورش أن يعاقبه على سوء عمله لو فعل ذلك لما عوتب فيه لأنه كان له الحق بذلك . هذا هو الامر الذي عبر عنه القرآن بقوله « إما أن تعذبهم وإما أن تتخذ فيهم حسناً » .

الى الحقيقة التي اراد كورش إثباتها بعمله ولذلك حاول القوم نقضها باختراع هذه المعجزة الواهية الكاذبة .

وجاء في القرآن ان ذا القرنين قال : « وسنقول له من أمرنا يسرا » أي ان أحسن القوم فسيرون أنه ليس في معاملتي ما يشق عليهم أو يسوءهم وقد شهد مؤرخو اليونان بأن معاملته كانت كما ذكره القرآن فقد كان هو للبلاد المغلوبة كله عطفاً ومرحمة . وقد نجاهم من كل ما كانوا يئنون تحته من الخراج الثقيل والضرائب الباهظة التي كان الملوك في ذلك العصر يفرضونها على الرعية . وقد فتح يسر اوامر كورش ورحمة قوانينه دوراً جديداً للرخاء ورغد العيش للناس قاطبة .

خصائل كورش العامة

٦ — هذه كانت معاملته في مهمته الغربية أما كيف كانت عاداته وخصائله ؟ وماذا شهد به مؤرخو اليونان في شأنها ؟ والى أي مدى تطابق هي مع ما ذكره القرآن منها ؟

لا ينبغي لنا أن ننسى الأمر الواقع وهو أن المؤرخين الثلاثة الذين كتبوا عن كورش لم يكونوا من قومه . ولا من أبناء وطنه ودينه بل كانوا من اليونان . ليس هـذا فحسب بل لم يكونوا من أصدقائه ومحبيه . هزم كورش ليديا وهزيمة ليديا كانت في الحقيقة هزيمة لقومية اليونان ولحضارة اليونان ولدين اليونان ثم خلفه داريوش وأردشير فأغارا على بلاد اليونان نفسها . وهكذا تولد العـداء بين الشعبين وتمـكن . ثم إن هؤلاء المؤرخين الثلاثة ألفوا كتبهم في عصر أردشير أو بعده أي في العصر الذي اشتعلت فيه عواطف اليونان القومية فيـه إلى آخر حد . وأخذ شعراء اليونان يكتبون أشد التمثيليات العدائيـة ضد الفرس وهي موجودة الى

الهزيمة الشنيعة فتحاً دينياً لآلهتهم . فقد روى هيرودوتس ما قاله الناس في ليديا بعد اندحار ملكهم ، فزعموا أن هاتف دلفي لم يخطىء ، وإنما أخطأ كروسس في فهم جوابه لتحمسه الحربي . كان الهاتف قال له « إن هاجم كروسس الفرس ، فيدمر مملكة عظيمة » ، أي أنه يقضي بهجومه على مملكته العظيمة نفسها ، ولكنه أساء الفهم ، فظن أن الهاتف بشره بانهيار المملكة الفارسية . وكذلك زعموا أن كورش لما أمر باحراق كروسس فوق مصطبة الحطب ، تذكر كروسس وهو فوق المصطبة المشتعلة بالنار ، قول فيلسوف يوناني له فأخذ يبتسم . وقد أخبروا كورش بذلك فتأثر به أيما تأثر وأمر باطفاء النار حالا ، ولكن النار كانت قد تأججت وعجز رجال الملك من إطفائها ؛ فنادى عند ذلك كروسس الاله « ابالو » وعلى الرغم أنه لم يكن على السماء غيم أخذ المطر ينهمر فأطفأت النار في لمحة من البصر وأنقذ الاله حياة كروسس بعد أن عجز عنه كل البشر !

هذه هي مزاعم القوم ولكننا لما نرجع الى ما صرح به هيرودوتس وزينوفن نعلم الحقيقة . قام كروسس بهجومه بعد ان تقوى قلبه ببشارة آلهة اليونان وقد اشتهرت البشارة قبل بدء الحرب فاراد كورش أن يبطل ما اعتقده القوم ويريهم أن الذين اتخذوهم آلهة لا يستطيعون لهم نصراً حتى أنهم لا يقدرون على إنقاذ من أحبوه وبشروه بالفتح من الاحتراق وهو حي . ولذلك أمر كورش أولا أن يقعدوه على مصطبة الحطب ويشعلوا النار فيها ، ليري الناس بأعينهم أن آلهتهم لا قدرة لها وأنه ليست هنالك معجزة تنقذ ملكهم من النار بل سيصير رماداً تذروه الرياح . فلما تجلت هذه الحقيقة للعيان اطفئت النار بامر الملك ونجا خصمه المكسور من الهلاك . وان معجزة « أبالو » المزعومة في اسطورة اليونان لتشير صراحة

اكبر مظهر للحكم وأعظم شخصية للحكمه والفضيلة !

لقد نشأ اسكندر الاكبر على يد ارسطاطاليس ، ولا ريب أنه كان فاتحاً عظيماً ولكن هل فتح زاوية من زوايا الانسانية والاخلاق ؟ لم يوجد لكورش ارسطاطاليس وانه عوضاً من المدارس البشرية نشأ في مدرسة الفطرة . ومع ذلك لم يكتف بتسخير البلاد كالاسكندر بل سخر مملكة الانسانية والفضيلة كذلك .

ان عمر فتوح الاسكندر لم تجاوز عمر فتوح الاسكندر نفسه ، ولكن المعاقل التي شيدتها فتوح كورش صارعت الحوادث الغلابة قرنين كاملين بدون أن يصيبها تلف . ما لفظ الاسكندر انفاسه الاخيرة حتى تقطعت اوصال مملكته المفتوحة ولكن كورش عندما انتقل من الدنيا كانت مملكته مستعدة للتوسع والتمكن . لم يكن ينقص فتوحه إلا مصر فأتم النقص ولده باستيلائه على مصر ، وبرزت بعد بضع سنين تلك الامبراطورية العالمية التي لم ير العالم القديم مثلها قط . فبسطت سلطانها على ثمانية وعشرين قطراً من قارتي آسيا واوربا وكذلك على مصر وكان على عرشها خلف كورش يحكمها وحده بلا منازع !

كانت فتوح الاسكندر فتوحاً مادية . بينما فتوح كورش تملت الجسد والروح معاً . ترفع الاولى رأسها فلا تقدر على البقاء بينما تبقى الأخرى غير متزحزحة !

اعتراف المؤرخين العصريين

وقد اعترف بهذه الحقيقة محققو التاريخ في العصر الحاضر ، فهذا المستر غراندي استاذ جامعة اكسفورد والاختصاصي الثقة في التاريخ

يومنا هذا . فما كان ينتظر في مثل هذه الظروف العدائية من رجل يوناني أن يغني بأناشيد المدح لعدو شعبه اللدود . ويطلق العنان لقلمه فيجري بالثناء عليه . ومع كل ذلك نرى كل واحد من المؤرخين الثلاثة يعترف بعظمة كورش الخارقة للعادة وبفضائله الأخلاقية الفذة . وهذا دليل قاطع على أن محاسن كورش كانت قد اشتهرت اشتهاراً ما كان يسع أحداً معه أن ينكرها أو يماري فيها حتى ولو كان من اكبر أعدائه ، فشهدت بها الأعداء كالأصدقاء على سواء . ولله در من قال :

ومليحة شهدت بها ضراتها والفضل ما شهدت به الأعداء

ويقول هيرودوتس : « كان (كورش) ملكا كريماً جواداً سمحاً للغاية . لم يكن حريصاً على جمع المال كغيره من الملوك بل كان حرصه على الكرم والعطاء . يبذل العدل للمظلومين ، ويحب كل ما فيه خير للبشر » .

ويقول زينوفن : « كان ملكا عاقلا رحيما . اجتمعت فيه مع نبل الملوك فضائل الحكماء . همته تفوق عظمته . وجوده يغلب جلالته . خدمة الانسانية شعاره وبذل العدل للمظلومين ديدنه . حل فيه – مكان الكبر والعجب – التواضع والسماحة .

بروز شخصية كورش

٧ — وأظهر ما نجد في صفحات هؤلاء المؤرخين هو رفعة شخصية كورش الفذة . فقد أجمعوا على أنه لم يكن من نبت عصره بل شخصاً فذاً كأنه سبق خلق عصره . لم يعلمه معلم ولم يربه حكيم ولم ينشأ في بلد متحضر وانما كان ربيب الفطرة وصنيع ايدي الحكمة الازلية . مضت الايام الاولى من حياته في حجر الصحارى وكنف الجبال . كان من رعاة الصحارى الشرقية من فارس فوا عجبا لما برز هذا الراعي أمام أعين العالم ، كان

الامن والسلام يشمل الجميع . وترفرف الطمأنينة والرفاهية على الكل . قد محيت آثار مظالم الملوك الآشوريين والبابليين وارجعت الشعوب المنفية الى أوطانها وأعيدت اليها آلهتها ومعابدها . لم يبق اعتساف ضد العوائد والعادات القديمة . بذل العدل لسائر الشعوب ومنحت الحرية التامة لجميع الاديان والمذاهب وقد حل محل الخوف العام السابق عدل عام وسماحة كريمة ومساواة تامة (١) » .

أرأيت كيف يشرح ويفصل قصاص اليوم ما أجمله القرآن الكريم في كلمات وجيزة من فضائل الرجل وخصائله الحميدة !

٥

معتقدات ذي القرنين المذكورة في القرآن

(وكوروش)

وآخر وأهم ما يلفت نظرنا من اوصاف ذي القرنين ، هو إخلاصه العبادة لله وحده وايمانه بالحياة الاخرة . وقد مر بنا ما ذكره القرآن منه فلنرى الان هل كان كوروش كما وصف به ذي القرنين ؟

أجل تدل القرائن والشواهد كلها على ذلك

فأول ما يواجهنا من الامر هو عقيدة اليهود القومية في المسألة . صرحت صحف اليهود الدينية عن كوروش بأنه كان موعوداً من الله ومسيحه بعثه الله لينفذ مشيئته ويتم مرضاته . ومن المعلوم ان اليهود ما كانوا ليعتقدوا ذلك في شأن رجل وثني لا يوحد الله فلا بد من ان يكون كوروش ممن يوحد الله ويؤمن به .

(١) راجع لمقال الاستاذ كتاب تاريخ العالم لهمرتن ج٢ ص ١٠٨٥

القديم والذي نال تأليفه « الحرب الفارسية الكبرى » قبولا عاماً يقول في مقال له :

« لا ريب كانت شخصية كورش شخصية فذة غير عادية في عصره فانه أحدث في قلوب الشعوب المعاصرة له أثراً يحير الالباب وقد ألف زينوفن تلميذ سقراط سوانح حياته بعد موته بمائة وخمسين سنة . وانا لنرى في جميع الروايات فضائله الانسانية بارزة . وسواء اهتممنا بها أم لم نهتم إلا أنه لامناص لنا من الاعتراف بأن حبل سياسة ملكه كان مرتبطاً بمحاسنه الأخلاقية وفضائله الانسانية . واذا لاحظنا سلوكه مع ما كان عليه ملوك آشور وبابل من السيرة ، نجده يتلألأ تلألؤاً عظيماً رائعاً . ثم يقول :

« لقد كان نجاحه نجاحاً عظيماً . كان قبل اثنتي عشرة سنة اميراً مجهولا لامارة مجهولة وهي (انشان) فاذا هو نراه الآن قد خضعت له جميع تلك البلاد التي كانت مراكز العظمة للشعوب الكبيرة السابقة . فهذه البلاد التي ادعت ملكية الأرض في أيامها لم يعد أحد منها يتجرأ الآن على ادعاء الزعامة لنفسه . فمن بلاد ساراغون . الملك الأساطيري للمملكة الآكادية الى بلاد بخت نصر امبراطور بابل سجدت كلها لهذا الامبراطور الفاضل الجديد . إنه لم يكن فاتحاً عظيماً بل حاكما كبيراً كذلك . وان الشعوب لم تقبل الدور الجديد فقط بل رحبت به أيضاً . ففي السنين العشرة الاخيرة من حياته بعد فتح بابل لم تحدث ولا ثورة واحدة في مملكته الواسعة . أجل كانت رعيته تهابه ولكن لا تخشى قسوته ، إذ حكومته لم تعرف عقاب القتل والسلب والنهب ، لم يكن المذنبون يجلدون ولا تصدر الاوامر بالمذابح العامة ولا تخاف الشعوب الجلاء من الأوطان بل كان

متى وأين ظهر زردشت ؟ لانعلم حق العلم . وقد ذكر مؤرخو اليونان في القرن الثالث والثاني قبل الميلادما كان شائعاً في عصرهم عن زمنه فقالوا مضت عليه الوف السنين . ولا يخفى على اطلاق القول بالقدم كهذا لا يكون إلا إذا بعد العهد ومضت عليه الف أو أكثر من السنين ولكن علماء العصر الحاضر يرون أن القول مبالغ فلا يتصور لزردشت مثل هذا القدم . وقال الاستاذ كالدنر إن زمن زردشت لا يتجاوز ستة قرون قبل الميلاد . وقد قبل العلماء رأيه هذا فان كان الامر كما ذكر فيكون زردشت وكوروش قد عاشا في عصر واحد .

أما مكان ظهوره فترجح عند العلماء أنه ظهر في إيران الشمالية نعني

ـ الحالة النصبيه ، يكتبون الالف في اللاتينية الحاضرة ، وعلى ذلك ينطق الالف الاخير من « زاراتهستراً » بصوت يشبه النصب . وتبدل تاء الكلمات البهلوية القديمة في بهلوية العصر الساساني ، بالدال فمثلا « يرتا » الذي ذكر في أوستا ، أصبح في البهلوية الساسانية «يزدا» ثم حرفوه «يزدان» وكذلك «امرتات» كان اسماً لملك من الملائكة واسماً لشهر فارسي كذلك ، تغير في البهلوية الساسانية ، فاصبح «امرداد» وهذا هو ما وقع لاسم مؤسس الدين الفارسي ، فصار «زارادهشترا» ثم صار بكثرة الاستعمال «زردشت» فقال الدقيقي :

منى خون رفك وكيش زردشتي

وجاء في شاهنان :

خجسته بدي نام او زردهشت كه أهر يمن بدكيش رابكشت

وحرف العرب «زردشت» وهذا بدورهم فقالوا ، زرتشت أو زردشت .

ولا يخفى أن عصبية اليهود الجنسية كانت شديدة جداً ضد الاجانب غير الاسرائيليين فما كان اشد على عصبيتهم القومية من ان يعترفوا لأجنبي بكرامة وشرف . وقد منعتهم هذه العصبية نفسها في بدء الاسلام من الاعتراف بنبي الاسلام صلى الله عليه وسلم فكان يقول بعضهم لبعض « ولا تؤمنوا الى لمن تبع دينكم » (٣ : ٧٣)ولكن على الرغم من ذلك خفضوا جناحهم لفضائل كوروش الذي كان اجنبياً عنهم من كل الوجوه ولم يكتفوا بالاعتراف بكرامته بل حسبوه موعوداً به على لسان الانبياء وصفي الله فهذا الامر الواقع يحملنا على البت بأنه كان في دين كوروش ما استحسنه اليهود وهو الذي حملهم على الاعتراف بفضله رغم عصبيتهم ضد الاجانب .

ومن الطبيعي ان يحمد الانسان من احسن اليه و يحترمه فما كان عجيباً من اليهود ان يغنوا بعظمة الملك الذى نجاهم من الاسر والدل غير مبالين بدينه ولكن الذى ما كان ينتظر منهم ان يقولوا عن ذلك الملك بأنه مرسل من عند رب اسرائيل وأنه من اصفيائه واوليائه .

الدين الزردشتي

لنرى الان ما عندنا من المعلومات عن معتقدات كوروش الدينية ؟

إذا نظرنا الى الشواهد التاريخية نكاد نقطع بأن كوروش كان يدين بدين زردشت أي أنه كان يتبع الدين الذي جاء به زردشت الشهير . (١)

١ ـ النطق الصحيح لاسم زردشت في اللغه البهلوية «زاراتهستر» حرفه اليونان فقالوا «زارسترو» والحروف الاخيرة للاسماء البهلوية كالسنسكريتية مهموزة دائماً ، أي تنطق منصوبة تقريباً ، ولاظهار هذه ـ

نشبت بعد كوروش بثماني سنين وكتابات داريوش على الصخر التى تلقى الضوء على معتقداته الدينية .

لقد أجمع المؤرخون على أن كوروش توفي سنه ٥٢٩ ق. م. وخلفه ولده كمبوشية (كم بى سيز فى اليونانية) الذي استولى على مصر فى سنة ٥٢٥ ق. م. ثم علم وهو بمصر أن ثورة نشبت في مادا قام بها رجل يسمى (كاماتا) زاعماً بأنه الولد الثانى لكوروش الذي كان يسمى (بردية) (سمرديز فياليونانية) وكانقد توفيمنقبل فرجع كمبوشية (قمبز) من مصر إلا أنه مات فى طريقه بالشام ولما كان نسل كوروش قد انقطع بوفاة كمبوشية ارتقى العرش ابن عمه دارايوش فقضى على الثورة وقتل زعيمها وكذلك أجمع المؤرخون على أن دارايوش ارتقى العرش سنة ٥٢١ ق. م. أي بدأ عهده وفاة كوروش بثماني سنين

وقـــد صرح مؤرخو اليونان أن ثورة مادى إنما قام بها أتباع دينها القديم وقد وصف دارايوش زعيم الثورة بكلمة « موكوش » أي متبع دين مادى القديم (١) وقد تكررت ثورات أصحاب هذا الدين فيما بعد

١ — وهنا ينبغي أن ننبه على خطأ شائع ، اطلقوا كلمة (مرغوش) في اللغة العربية (مجوساً) وأطلقوها على أتباع الدين الزردشتى ، ولم يكن في الاصل اسماً لهم ، فقد ثبت الآن بلا ريب انه كان اسماً يعرف بهاتباع الدين الذي كان شائعاً فى مادىقبل زردشت ، فقد وردت الكلمة فىأوستا كذلك واستعملت في شأن معارضي زردشت ، ولكن لما كان اشتهر أهل مادى فيبلادالعرب والشام باسم موغوش أخذوا يسمون به أتباعزردشت كذلك .

بها آذر بيجان (١) (آتورپايگان - بالكاف الفارسية) التي سميت في الجزء المسمى : « ويندي » من أوستا بكلمة (إيريانا ويجو) (٢) أي أرض إيرايانا الطاهرة . وقال كلدنر إن سلمنا برواية الشاهنامة فيكون المقصود بغشتلب (٣) ذلك الرجل الذي كان والدا لداريوش على رواية مؤرخي اليونان . وسواء ظهر زردشت في زمن كوروش أو تقدمه بقليل فليس هناك ما يحملنا على الريب في أن كوروش كان من متبعي الدين الزردشتي .

أجل ليس عندنا من الشواهد التاريخية المباشرة ما يؤيدنا فيما قلناه ولكننا إذا نظرنا في القرائن التي تركتها النصوص التاريخية فلا مناص من الوصول إلى ما وصلنا اليه .

لنتدبر في حادثين تاريخيين لا شك فيهما وهما ثورة (كوماتا) التي

---

١ - (آتر) في اللغة البهلوية القديمة ، معناه النار . وقد حرفت الكلمة فصارت «آزر» ثم « آتش» وعلى ذلك « آتربانگان » معناه بستان النار ، وذلك لانه توجد في الارض ينابيع الغاز ، والتراب في بعض الاماكن يغلب عليه الزيت ، حتى إذا اقتربت منه النار ، اشتعلت فلا عجب ان سميت هذه البلاد بهذا الاسم .

٢ - قرأت هذه الكلمة في قراءة إسبيغل « ويج » لا « ويجو » فجاء في الآية الثانية من ويندیداد فرغرد الأول « يقول أهورا مزدا ، إن اول ملك خلقته هو ايريانا ويج » وقد ذكر هو في الآية الحادية والعشرين من هرمزديشت مع الصلاة عليه .

٣ - حرف اليونان اسم غشتاسب فقالوا « هيستازيز » وهو في البهلوية القديمة « وستاسب » .

الدين القديم كانوا يحرضون العامه وغوغاء الناس باسم الدين ويحملونهم على الثورات ؟

كانت شخصية كوروش ، ثورة على الميول العقلية والاخلاقية لعصره . وإنا لا نجد لخصائله الروحية والاخلاقية معيناً في البيئآت العيلامية ، والأشورية والبابلية ، فلا بد من انه استقى من معين آخر ، ومما لا ريب فيه انه وجد هذا المعين في تعاليم زردشت الاخلاقية المثلى: (هو مت) و (هوخت) و (هو ورشت) أي صدق النية ، وصدق القول ، وصدق العمل . هذا هو اساس تعاليم زردشت الدينية . ومن مثل هذه الاخلاق كان يمكن أن يتكون مزاج كورش الملكي !

فان كان ذو القرنين يدين بدين زردشت ، اي بالدين الزردشتي ، ويثبت له القرآن الايمان بالله واليوم الآخر ، ليس هذا فحسب ، بل يجعله من الملهمين من عند الله . أولا يلزم من هذا أن دين زردشت ، كان ديناً صحيحاً إلهياً ؟ أجل ، يلزم هذا ، وليس هنالك ما يحملنا على رفض هـذا اللزوم ، لأنه قد ثبت الآن نهائياً بأن دين زردشت كان دين التوحيد والأخلاق الفاضلة ، وأن عبادة النار والعقيدة الثنوية ليستا منـه . بل من بقايا مجوسية مادى التي اختلطت بالزردشتيه في العصور التالية .

دين مادى وفارس قبل زردشت

كانت المعتقدات الدينية لاهالي مادى وفارس تشبه المعتقدات القديمة الشائعة بين الشعوب الآرية الاخرى . فعبد الآريون في فارس بادي ذي بدء كاخوانهم الآريين في الهند ، المظاهر الطبيعية ، ثم أخذوا يعظمون الشمس ، ثم أحلوا النار محل الشمس لأنها من بين العناصر المادية كلها ، مبدأ النور والحرارة . وقد تصور الهنود واليونان آلهة تمثل الخير والشر معاً ،

كذلك فنشبت الثورة الثانية بزعامة موكوش « براورتيش » الذي قتل في هغ متانا . أي همدان والثورة الثالثة قام بها « شترت خمة » الذي اعدم في أرديل

أما كتابات دارايوش ، فان من حسن حظ التاريخ أنه أختار لها الصخور الجبليه التي عاشت على رغم الدمار الاسكندري ، وأهم هذه الكتابات ، الكتابه التي اشتهرت بـ « الكتابة من دون عمد » ذكر فيها دارايوش تفصيل ارتقاءه العرش وثورة غوماتا المجوسي . وهنالك صخرة أخرى في أستخر ذكر الملك في كتابتها اسماء البلاء التابعة له . وقد تكرر في هذه الكتابات اسم « اهورا مزدرا » الذي يرجع الملك دارايوش جميع مساعيه الناجحة إلى فضله وتوفيقه . ولنا بحاجة إلى التنبيه على ان « أهورا مزدا » هو الله في الدين الزردشتي .

وينبغي أن لا ننسى هنا أنه لا يوجد في ما كتبه مؤرخو اليونان ما يستدل به على أن كمبوشة أو دارايوش اختار ديناً جديداً . ولد المؤرخ هيرودوتس بعد وفاة دارايوش بسنتين في سنه ٤٨٤ ق . م . والف تاريخه بعد وفاته بنحو خمسين سنه ، فكان عصر دارايوش ليس بعيداً عنه . ومع ذلك لم يذكر شيئاً عن دين دارايوش .

ما معنى ذلك ؟ إذا كان كمبوشية ودارايوش لم يعتنق دينا جديداً بعد كورش ، وقد ثبت نهائيا أن دارايوش كان يتبع الدين الزردشتي ، أفلا يظهر من ذلك ان دين زردشت كان قد دخل في الاسرة المالكة قبل دارايوش و كمبوشيه . نرى اصحاب الدين القديم يثورون بعد وفاة كوروش بسنين قليلة مرة بعد أخرى ، أفلا يثبت ذلك جلياً أن كوروش كان قد اعتنق الدين الجديد ، دين زردشت ، وان رؤساء

« إن هؤلاء الضالين المضلين يذبحون الذبائح ويقـدمون الضحايا ، ويفرحون بعملهم » (يسنا ٧٢)

مزديسنا

وقد دعى زردشت الى دين « مزديسنا » أي الى دين التوحيد الذي يحرم الشرك بالله وعبادة الأوثان .

وقد أبطل زردشت جميع معتقدات موغوش ، أي المجوس القدماء قائلا : ليس هنالك قوى روحية كثيرة للخير ، ولا عفاريت كثيرة للشر ، بل إنما هو إله واحد ، اسمه « اهورا مزدا » الذي ليس كمثله شيء . وهو الواحد ، الأحد ، القدوس ، الصمد ، وهو الحق والنور ، وهو الحـكيم القادر الخالق الذي لا يشاركه في ملكه وربوبيته شيء . وان القوى الروحية التي زعموها خالقة للخير ، ليست بخالقة ، بل هي نفسها من خلق أهورا مزدا ، وهي تسمى « أمش سبند » (بالباء الفارسية) و « يزتا » أي الملائكة . وانا لنجد في جزء اوستا الذي يسمى بـ « غاتهـا » أسماء ملائكة عديدة ، مثل « أشا » و « هوفما » و « خشترا » و « أرمتى » و « هوروتات » و « أمرتات » . وكذلك ذكرت أسماء ملائكة اخرى في الكتب التي تلت أوستا . وقد سميت الأيام والشهور عند الفرس بأسماء هؤلاء الملائكة .

وكذلك صرح زردشت بأنه ليس للشر إله ، بل الذي يأمر بالشر هو « إنغرامى‌نيوش » أي الشيطان . وقد حرف الاسم ، فأخذوا يقولون « آنرومين » وبعد مدة حرفوه كذلك ، فأصبحوا يقولون « اهرمن » .

وان من العناصر الاساسية للدين الزردشتي الاعتقاد بالحياة الاخروية

ولكن عقليه ايران قسمت القدرة الالهية الى قدرتين متوأريتين : فقدرة إله الخير على زعمهم تهب البشر افراح الحياة كلهـــا ، وقدرة إله الشر ، تتفجر منها الشرور بأصنافها .

وقد كانوا يبنون المذابح لعبادة النارفوق الجبال ، يتولاها السدنة الذين سمو بـ « موغوش » (موكوش ـ بالكاف الفارسـية) وقد صارت الكلمة تمثل عبادة النار فيما بعد ، ونطقوها بالعربية والعبريه (مجوساً) وقد سمى زردشت ، المجوس فى (غاتها) بـ « كاريان » (بالباء الفارسية) و (كاوى) ويرى علماء الألسنة فى العصر الحاضر ان كلمـــة (كاربان) البهلوية ربما كانت كلمة (كلب) (بالباء الفارسية) السنسكرتية التي تدل على القيام بالشعائر والاعمال الدينيـــــة . أما كلمة (كاوي) وهي في السنسكرتية (كوي) التي معناها ، الشاعر ، وهي في لغـة أوستا تطلق على الساحر ، وما الشاعر إلا نوعا من السحرة : إن من البيان لسحرا .

وإن ما نجده في كتب ويدا الهندية من شعائر عبادة الآلهـــــة والضحايا ، ربما كان شائعاً مثله فى قبائل مادى وفارس المشتغلة بالزراعة . وكان شرب الخمر من الشعائر الدينية ، وان الشراب المسكر الذي ذكر في كتب ويدا باسم (سوم) كان يسمى عند الماديين والفرس بـ (هوم) وان زردشت ناجى الله فى اوستا فى شأن هذا الشراب فقال :

إلهي ، متى يؤثر رؤساء هده البلاد الهـــداية على الضلال ؟ ومتى يتحرر الناس من شرور الكاربين والكاوين ؟ ومتى يقضي على هـــذا الشراب النجس الذي يخدعون به الناس ، فيستأصل أصله ويمحي أثره ؟ (يسنا ٤٨ : ١٠) .

ويقول في مكان آخر :

القديمة الى الوثنية من أي نوع فى دور من أدوار تاريخهم »

عرفت الهند القديمة كذلك التوحيد . ولكن بقي تصوره محصوراً في الخاصة من أهاليها ، أما العامة فاستحسنوا لها الوثنية · أما زردشت فلم يفرق في ذلك بين العامـة والخاصة ، فظل متبعوه من سائر الطبقات يوحدون الله على السواء · ولا نكون مخطئين إن قلنا ، لم ير التاريخ القديم إلا دعوتين تدعوان الى التوحيد فى العالم الوثني ، وهما دعوة ابراهيم عليه السلام من الشعوب السامية ودعوة زردشت من الشعوب الآرية ·

زردشت والثنوية

ظن الناس أن الدين الزردشتي قام على الالوهية الثنوية أي الاعتقاد بوجود إلهين اثنين فى الكون : إله للخير وإله للشر كما كان المجوس يعتقدون قبل زردشت ، ولكن ثبت بعد البحث والتحقيق أن هذا الظن ليس من الحق فى شيء · أجل ، قال زردشت بأصلين كونيين : أصل الخير وأصل الشر ، ولكنه لم يقل بالهين متوازيين · هذا هو ما كان المجوس يعتقدونه قبله ، وقـد أنكره هو إنكاراً تاماً · إنه يقول بالأخـلاق الثنوية لا بالالوهية الثنوية ·

وقد حاول بعض الفرس الزردشتيين فى العصر الحاضر أن ينزهوا الدين الزردشتي عن الثنوية كلية ، إلا أن محاولتهم هـذه لا تخلو من التكلف ، ولم تكن ثمه حاجة اليها · ما هي حقيقة الثنوية عنـد زردشت ؟ ليس إلا القول بأنه يوجد في الكون أصلان : أصل للخير وأصل للشر وان الذي يجلب الشر هو « إنغرامي نيوش » (إهرمن) وهو الشيطان في لغته . وهذه الثنويه لا يخلو منها دين ، وان تفاوتت درجات الاديان فيها

فهو يقول لا تنتهي حياة الانسان بموته فى هذا العالم المادي ، بل له حياة اخرى بعد هذه الحياة الدنيـا ، فيرى فى تلك الحياة عالمين : عالم السعادة وعالم الشقاء . فالذين عملوا الصالحات فى حياتهم الدنيا يدخلون عالم السعادة ، والذين دنسوا نفوسهم بالشرور يدخلون عالم الشقاء .

والاعتقاد ببقاء الروح من معتقدات الدين الزردشتي الأساسية ، فهو يقول بفناء الجسم ، أما الروح فيبقى بعد الموت كذلك ويلاقي الجزاء وفق أعماله .

وأهم ما فى الدين الزردشتي هو قانونه الأخلاقي ، فليست الأخلاق في نظره منفصلة عن الدين ، كما كان الأمر عند اليونان . بل هي جزء من الدين ، لا انفصال بينهما . وكذلك لم يكن الدين عنده شعاراً قومياً واسماً لرسوم وعوائد ظاهرية فقط ، بل قانوناً ونظاما للحياة الفردية . وان طهارة النفس وحسن العمل ، لهو المحور الذي تدور عليه تعاليمه الدينية . وهو يطالب بموافقة النية والقول والعمل لهذا القانون موافقة تامة . وهذا القانون يتلخص فى كلمات ثلاثة : هومت ، هوخت ، هوورشت . أي صدق النية وصدق القول وصدق العمل . وإن دينه كما قال الاستاذ غرندى « كان دين الحقيقة والعمل ، فقد جعل الدين حقيقة حياة الفرس اليومية وجعل مكارم الاخلاق عنصراً مركزياً لدينه » (١)

وكان دينه لا تشوبه شائبة من الوثنية ، فهو لم يبح عبادة الأصنام في شكل من الأشكال . وقد مضت على دينه أدوار من التحريف والتبديل إلا أن متبعيه ما زالوا مجتنبين الوثنية . وقد اعترف بذلك (مالكهم) فى كتابه « تاريخ ايران » قائلا : « لم يجنح الفرس وحدهم من بين الشعوب

---

(١) راجع مقال الاستاذ فى التاريخ العالمي ج ٢ ص ١١٣٠

الدين الذي جعل هدفه الوحيد تطهير الحياة الفردية من ادران الشرور كان خليقاً أن يسبك قوالب مثالية للاعمال الحسنة والخصائل الحميدة ومن الذين شهدوا له بذلك ؟ اولئك الذين لايمتون بصلة صداقة للفرس بل كانوا ألد أعدائهم ومع ذلك لا نراهم يمارون في فضل الفرس الاخلاقي فهذا هيرودوتس وزينوفن يعترفان بكل صراحة بأن الفضائل التي تحلى بها الفرس خلت منها اليونان ، ولنستمر من الاستاذ غرندي كلمته التي قالها في الباب « إن ما كان الفرس اتصفوا به من الصدق ومحاسن الأخلاق لا نرى له مثيلا في الشعوب المعاصرة لهم »

كتاب داريوش

بلغ الدين الزروشتي ذروة مجده في عصر داريوش ، وها نحن نرى الامبراطور يردد صوت هذا الدين في كتاباته الخالدة على الصخور ، فيقول في واحدة منها ، وقد مضت عليها ألفان وخمسمائة سنة :

« إن الاله العلي (أهورامزدا) هو الذي خلق الأرض ورفع السماء وفتح سبل السعادة على البشر وهو الذي أقام داريوش وحده حاكما على الكثيرين وجعله واضع الشرائع لهم »

ويقول في كتابة اخرى :

« يعلن داريوش للناس قاطبة بأن أهورامزدا قد وهبني الملك بفضله ورحمته ، وقد نجحت بتوفيقه تعالى في تدعيم الأمن والسلام في الأرض ، وإني أبتهل الى أهورامزدا إلهي أن يرعاني أنا وأسرتي وجميع البلاد التي جعلني حاكما عليها . يارب أهورامزدا إسمع دعائي واستجبه ! ».

كاليهودية والنصرانيه والاسلام ، كل من هذه الاديان الثلاثة يقول بوجود الشيطان . وان عمدنا الى تحليل « انغرامى نيوش » الذي ذكره أوستا ، والشيطان الذى حدثنا عنه كتاب الخلق من التوراة تحليلا منطقياً لما وجدنا بينهما فرقاً جوهرياً

وهنا تعرض لنا مسألة أساسية : أليس في الكون شيء يصح أن يسمى بالخير او الشر ؟ وهل الذي نسميه بالخير او الشر ليس له وجود في الخارج بل وإنما هو تأثر إضافي لنا فقط ؟ إن قلنا بذلك، فطبعاً لا يبقى مجال لوجود الشيطان او انغرامي نيوش . ولكن إن قلنا بوجود حقيقتين متوازيتين للخير والشر فلا مناص من قبول الثنوية في شكل من الاشكال وسواء سميناه بهذا الاسم أو بغيره فانها تحتل مكاناً في معتقداتنا

وهذا افلاطون ينقل لنا في كتابه « الجمهورية » قول سقراط : ان الشر في العالم اكثر من الخير ، ولما كان من المستحيل أن يكون الله علة الشر فلابد من البحث عنها في شخص آخر . وهذا البحث عنها يصل بنا الى الشيطان اوالى انغرأمي نيوش ، وقد حكى كتاب الخلق من التوراه قصة آدم والشيطان وقص أوستا قصة « جم » و « انغرامي نيوش » والحقيقة واحدة في القصتين وان اختلفت الاسماء والاشكال

روح مزدیسنا الاخلاقية

وقد احتمعت كلمة محققي العصر الحاضر على أن تعاليم زردشت قد لعبت دوراً هاماً في الرقي الانساني الفكري والأخلاقي وأنه وصل بأهل مادى وفارس قبل خمسمائة سنة من الميلاد الى المستوى الأخلاقي الطاهر الرفيع الذي كان يرى منه اليونان والروم في حضيض من الأخلاق وان

معظم بضاعتها .

ولما تأسست الامبراطورية الساسانية بعد خمسمائة سنة من الاسكندر حاول الفرس لم شعث الدين الزردشتي من جديد ، فكما جمع النبي عزرا التوراة بعد أسر بابل ، كذلك يقال ان أردشير بابكان أمر بجمع كتاب أوستا من جديد إلا أن خصوصيات الدين الحقيقية كانت قد تحرفت بتغييرات واضافات كثيرة ومسخت حقيقتها . فالدين الزردشتي في شكله الجديد لم يكن ديناً خالصاً بل أصبح خليطاً من المجوسية القديمة واليونانية والزردشتية . وقد زاد الطين بلة المؤبذون والمفسرون بحواشيهم وشروحهم وتفاسيرهم التي ذهبت بالدين بعيداً عن أصله .

الاسلام والزردشتيون

ولما جاء الاسلام كان هذا الدين الزردشتي المحرف معروفاً للعرب باسم المجوسية ، غير أن نبي الاسلام صلى الله عليه وسلم لم يخف عليه أصله فقال : « سنوا بهم سنة أهل الكتاب » أي عاملوا الزردشتيين كما تعاملون أهل الكتاب ، فنرى من هذا أن نبي الاسلام عليه السلام لم يقم الزردشتيين مقام المشركين بل وضعهم بمقام أهل الكتاب ، هكذا اعترف الاسلام لدينهم ما اعترف لدين اليهود والنصارى ، وانك تعلم أن الاسلام بينما يصدق بأصل دين اليهود والنصارى ينكر عقائدهم المحرفة المبدلة . وهذا ما فعله بالدين الزردشتي فلم ينكر أصله بل أنكر المجوسية المحرفة المبدلة .

وقد روي عن أمير المؤمنين علي عليه السلام أنه قال : إني أعلم ما عليه المجوس ، عندهم شريعة يعملون بها وكتاب يؤمنون به . فعاملوهم معاملة أهل الكتاب .

وكذلك يقول الملك :

« يا أيها الانسان ، أمرك أهورامزدا أن لا تخوض قط فى الشر ، ولا تحيد عن الصراط المستقيم أبداً ، واحذر الاثم في جميع الأحوال ! »

ولا تنس أن داريوش كان ابن عم كورش ، وقد خلفه بعد وفاته بثماني سنين فقط ، وعلى ذلك مايقول داريوش ، فكأنه قول كورش نفسه وان نسبة داريوش ملكه وكل نجاحه الى فضل أهورامزدا وتوفيقه ورحمته تطابق قول ذي القرنين في القرآن « هذا رحمة من ربي » (٩٨) .

تأخر مزديسنا وتحريفه وامتزاجه بغيره

وقد بدأ تأخر الدين الزردشتي من القرن الثالث قبل الميلاد ، فرفعت المعتقدات المجوسية القديمة رأسها من جهة ، وأخذت المؤثرات الخارجية تعمل عملها فيه ، حتى نرى هـذا الدين ، دين غورش وداريوش في عصر الامبراطور الروماني أنتونين قد تحول الى شكل آخر ففقد سذاجته الاولى وانضمت اليه عقائد معوجة معقدة .

والحقيقة التي لا مراء فيهـا أن حرب الاسكندر لم تقض على دولة الفرس السياسية وحدها ، بل جرحت مجد دينها القوى كذلك جرحاً بالغاً تقول لنا الاسطورة الفارسية إن صحيفة زردشت الدينية المقدسة كانت دونت فى جلود اثنى عشر ألف ثور بحبر من الذهب ، واحترقت أيام حرب الاسكندر . لا شك ان القول بجلود اثنى عشر الف ثور مبالغ فيه ولكن ما لا ريب فيه أن ما فعلت إغارة بخت نصر مع التوراة فعلتـه إغارة الاسكندر مع أوستا ، كتاب زردشت ، أي أن الدينين فقـدا

ووافقه في قوله ، شارح (حكمة الاشراق) قطب الدين الشيرازي . وقد صرح من بين متصوفي الهنـد ، الصوفي السمح . الواسع الفكر الميرزا مطهر حان جانان بمثل هذا الرأي في شأن قادة الأديان القدماء بالهند وايران (١) .

ولما نقل العرب ما وجدوه من الكتب الفارسية القديمة الى اللغـة العربيه ترجموا كذلك كتاب (اوستا) الذي دون في العصر الساساني واليه يشير مرة بعد اخرى أبو حمزة الأصفهاني في تاريخه (٢) . وكذلك بين المسعودي والبيروني نوعية أوستا ، وذكرا ترجمته العربيـة فقالا ان اوستا يحتوي على واحد وعشرين جزءاً . يكتب كل جزء منها في نحو أربعمائة صفحة . وانه يسمى أحد الأجزاء بـ (جسترشت) الذي ذكرت فيه بداية العالم ونهايته . ويسمى الجزء الأخير منها د (ها دوخت) الذي يحتوي على وصايا أخلاقية (٣) .

ومن الأسف أن نسخة أوستا العربية هذه التي كانت موجودة الى القرن الرابع من الهجرة كما صرح به أبو حمزة الأصفهاني ، قد فقدت ولم يبق لها أثر في دور الكتب العالميه الحاضرة . وكل ما عندنا من الذي يسمى بأوستا هو جزء ناقص من أوستا العصر الساساني الذي وصل الينا بواسطة الفرس الزردشتيين المهاجرين الى الهنـد . ونحن مدينون لمساعي المستشرق الفرنسي آنك تيل وتضحياته العلمية في معرفتنا بهذا الجزء . وأما محتوياته فنجد على خمسة فصول (غاتها) منه مسحة من العصر الزردشتي والباقي ينطق بلسانه أنه دون في العصر الساساني أو بعده .

(١) كلمات طيبات ، مكتوب ١٤ ص ٢٧

(٢) تاريخ سني ملوك الارض ص ٦٤

(٣) المسعودي ج ٢ ص ١٢٦ والآثار الباقية ص ١٠٥

فما زال المسلمون يرون أن الدين الزردشتي فى أصله لم يأمر بعبـادة النار بل أمر بالتوحيد وأن زردشت كذلك كان نبياً من الأنبياء القدماء . وقد أفصح الفردوسي صاحب « الشاهنامه » الخالدة عن هذا الرأي بقوله :

مگوئی كه آتش پرستان بدند پرستندگان نيك يزدان بدند

أي لا تقل عن الزردشتيين انهم كانوا عبدة النار بل كانوا يعبدون الله الواحد .

وكان ابو الريحان البيروني فى عصر الفردوسى يحقق التواريخ والسنين للامم القديمة . وقد قال في كتابه « الآثار الباقيـة » ما يستنبط منه أنه كان يفرق بين الدين الزردشتي والمجوسية . وقـد صرح شيخ الاشراق شهاب الدين المقتول فى كتابه (حكمة الاشراق) بأن زردشت كان نبياً . ليس هذا فحسب بل وصل بين زردشت والمذهب الافلاطوني الجديد (١)

---

(١) نفي الفلاسفة من الاسكندريه بأمر امبراطور الرومان جستينين في سنة ٥٢٩ م ، فتوجه بعضهم الى ايران ولقوا كل ترحيب فى بلاط انوشروان . وقيل ان سمى تس وديماستس قداختصا باحترام كبير في البلاط وقد عرفت اللغة الفارسية مذهب افلاطون الجديد بسبب هؤلاء الحكماء ، وليصبغوه بالصفة القوميه ، نسبه بعض حكماء ايران الى زردشت وجاماسب ولما نقلت الآداب الفارسـية الى العربيـة ، توهم الناس أنه كانت لزردشت وجاماسب فلسفة ذات أسرار ، تشبه فلسفة الاسكندرية الى حد كبير ، ولعل الذي كتبه شيخ الاشراق في مقدمة « حكمة الاشراق » ناتج عن هذا الوهم . وقد أخطأ حكماء العرب في ظنهم أن مذهب افلاطون الجديد الاسكندري ، مذهب افلاطون نفسه . وقد وقعوا فى هـذا الخطأ لانهم لم يفرقوا بين بلاتينس وافلاطون اوخدعتهم نسبة المذهب الى افلاطون .

الأنبياء (حتى اذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون) (٩٦:٢١) وفي سورة الكهف التي قصت قصة ذي القرنين .

إن كلمتي (يأجوج) و (مأجوج) تبدوان كأنهما عبريتان ولكنهما في اصلهما قد لا تكونان عبريتين . إنهما كلمتان اجنبيتان اتخذتا الصورة العبرية ، فهما تنطقان باليونانية « غاغ » و « ماغاغ » وقد ذكرتا بهذا الشكل في الترجمة السبعينية للتوراة ، وراجتا بالشكل نفسه في سائر اللغات الاوربية .

وقد ورد هذا الاسم لأول مرة في التوراة في كتاب الخلق عند ذكره خروج امم العالم من ذرية نوح . فقال « ولد ليافث بن نوح : جمر ومأجوج . ومادى ، ويونان ، وتوبال ، ومسك ، وتيراس (١٠:٣) ثم تكرر ذكرهم في الصحف الأخرى . وقد ذكروا بصراحة وتعيين واضحين في صحيفة حزقيال كما ستراه . وكذلك جاءت نبوءة بظهورهم في مكاشفات يوحنا في العهد الجديد .

فمن كان هؤلاء القوم يا ترى ؟ لقد تضافرت الشواهد التاريخية على أنهم لم يكونوا الا قبائل همجية بدوية من السهول الشمالية الشرقية تدفقت سيولها من قبل العصر التاريخي الى القرن التاسع الميلادي نحو البلاد الغربية والجنوبية . وقدسميت هي بأسماء مختلفه فيعصور مختلفة . وعرف قسم منهـــا في الزمن المتسأخر باسم « ميغر » في أوربا وباســم التتار في آسيا . ولاشك أن فرعاً لهؤلاء القوم كان انتشر علىسواحل البحر الاسود في سنة ٦٠٠ ق . م . وأغار على آسيا الغربية نازلا من جبال القوقاز . وقد سماه اليونان باسم « سيتهين » وذكر بنفس هذا الاسم في كتابة داريوش باستخر . ولنا أن نجزم بأن هؤلاء هم الذين شكت غاراتهم

٦

سد يأجوج ومأجوج

ها نحن قد فرغنا من البحث في شخصية ذي القرنين ولم يبق لنا الا النظر في مسألة يأجوج ومأجوج ، فيا ترى أي سد اريد به ؟ وأين نبحث عنه في أوراق التاريخ وفي خريطة الأرض الجغرافية ؟

وعلينا أن نتذكر في معالجة هذا البحث أن القرآن ذكر أمرين عن السد بخصوصية . وهما أن السد بني في مكان ارتفعت الجبال كجدارين على جانبيه . أي كان المكان مضيقاً جبلياً . وأن السد الذي أقيم به استخدمت فيه زبر الحديد وافرغ عليه النحاس المذاب . وعلى ذلك يجب ان نجد السد في مضيق جبلي ويجب ان يكون هو جداراً حديدياً لا جداراً من الحجر والآجر ويكون قد سد طريق المضيق الجبلي .

ننبهنا الى هذه الأوصاف لأن مفسرينا غضوا النظر عنها . فهم اذا سمعوا بوجود جدار في مكان ما سبق الى أذهانهم انه هو السد الذي بناه ذو القرنين حتى أن المرحوم السير السيد أحمد من الباحثين المصريين ذهب الى ان جدار الصين هو سد ذى القرنين في حين أن هذا الجدار لا يمكن أن يكون ذلك بحال لانه لم يبن في مضيق جبلي ولا استخدمت فيه قطعات الحديد بل هو جدار من الحجر يمتد الى مئات من الاميال .

يأجوج ومأجوج

لنبحث عن يأجوج ومأجوج اولا . فاذا وجدناهم سهل علينا الوصول الى السد .

ذكر القرآن يأجوج ومأجوج في سورتين فقال في سورة

لا تزال تنشأ فيه قبائل جديدة وتتدفق في دورها الى الخارج كأخواتها السابقة .

لا تتغير هذه البقعة بل تظل على همجيتها القديمة ولكن الذين كانوا ينسحبون منها ويسكنون البلاد الاخرى يتحضرون مع مر الزمن فتختلف حالتهم الجديدة عن الحالة القديمة ، فبينما المدنيـة تهذبهم وتزيل بربريتهم ، فيشتغلون بالزراعة والصناعات ، ويعيشون عيشه سهلة هنية ، يبقى اخوانهم في مسقط رأسهم على حالتهم الاولى من الهمجية والخشونة والقسوة . ولذلك يظلون شبحاً مخيفاً للمتحضرين .

الادوار السبعة لخروج يأجوج ومأجوج

يسهل علينا أن نقسم زمن خروج هذه القبائل الى سبعة أدوار :

فالدور الأول منها كان قبل العصر التاريخي عندما بدأت هـــذه القبائل تهاجر من الشمال الشرقي وتنتشر في آسيا الوسطى .

وكانــ الدور الثاني في فجر التاريخ ، فنرى فى ضوئه معالم حياتين مختلفتين : حياة البداوة وحيـاة الاستقرار ، فتخلد القبائل المهاجرة الى السكينة وتباشر الحياة الزراعيـه . إلا أن سيولا جديدة لا تزال تتدفق من الشرق ومدى هذا الدور من نحو سنة ١٥٠٠ ق٠م الى سنة ١٠٠٠ ق٠م .

ويبدأ الدور الثالث من سنة الف قبل الميلاد ، فنجد قوماً همجاً من البدو في بلاد بحر الخزر والبحر الأسود ، ثم لا يلبث هو أن يظهر بأسماء مختلفة ومن جهات مختلفة . ثم نرى القبائل « سي تهين » أخذت تظهر على مسرح التاريخ من سنة ٧٠٠ ق٠م . وتهاجم آسيا الغربية . كانت الحضارة الاشورية قد بلغت أوج مجدها ، وسادت مدنية نينوى وبابل على آسيا كلها قال هيرودوتس : انــ حدود الآشوريين الشمالية كانت عرضة لغارات

الشعوب الجبلية الى كورش فبنى السد الحديدي لمنعها .

القبائل المنغولية والبواشية

تسمى هذه البقعة الشمالية الشرقية من الأرض بـ « منغوليا » وقبائلها الرحالة بـ « منغول » وتقول لنا المصادر الصينية ان أصل كلمة مغول هو « منكوك » (بالكاف الفارسية بعد النون) او « منجوك » (بالجيم الفارسية) وفي الحالتين تقرب الكلمة من النطق العبرى « ماكوك » (بالكافين الفارسيتين) والنطق اليوناني « ميكاك » (بالكافين الفارسيتين) ويخبرنا تاريخ الصين عن قبيلة اخرى من هذه البقعة كانت تعرف باسم « يواشي » والظاهر أن هذه الكلمة ما زالت تحرف عند الامم حتى أصبحت « يأجوج » في العربية .

منغوليا مهد الشعوب القديمة

إن الجزء المرتفع من الكرة الأرضية الواقع فى الشمال الشرقي الذي يسمى الآن بمنغوليا وتركستان الصينية كان مهداً لشعوب قديمة لا يحصى إنه كان معيناً بشرياً تتدفق مياهه وتتجمع حتى اذا بلغت النهاية طفت وانصبت الى الغرب والجنوب . وجدت الصين فى الشرق منه وآسيا الغربية والجنوبية فى غربه وجنوبه وأوربا فى الشمال الغربي منه . فما زالت سيول القبائل والشعوب تتدفق فيستوطن بعض القبائل آسيا الوسطى والبعض الآخر يتقدم فيصل الى اوربا أو ينزل بآسيا الغربية والجنوبية وكانت هذه القبائل بعد خروجها من مسقط رأسها وحط رحالها فى البلاد الجديدة تفقد خصوصياتها الاولى وتصطبغ بصبغة أوطانها الجديدة فتصير على مرور الايام شعوباً بنفسها . ولما كان موطنها القديم لا تتغير أحواله

بزعامة جنكيز خان فقضت على الحضارة العربية وخربت بغداد — مدينة السلام .

فنعلم مما سبق أن معظم آسيا الغربية كانت عرضة لهجمات قبائل سي‌تهين المنغولية من القرن السادس قبل الميلاد . وان الزمن الذي وقفت فيه هذه الهجمات بغتة هو زمن كورش · فلابد من أن تكون هذه القبائل (سي‌تهين) هي التي سميت باسم يأجوج ومأجوج ، ولصد غاراتها بنى ذو القرنين ، أي كورش ، السد الحديدي ، فقفل هذا السد الطريق الذي كان يسلكه هؤلاء الهمج لشن غاراتهم على آسيا الغربية فأصبحنا لا نسمع لهجماتهم خبراً بعد .

من أي طريق كانت هذه القبائل تشن غاراتها ؟ يخبرنا مؤرخو اليونان بأنه كان مضيقاً في جبال القوقاز ، وقد ظل هذا المضيق باباً مفتوحاً على المغيرين زمناً طويلا ، فان كان كورش يريد صون آسيا الغربية من غاراتهم . فما كان له إلا أن يسد هذا الباب ، وقد فعل ذلك ببناء سده الحديدي .

نبوءة حزقيل ويأجوج ومأجوج

ظهر النبي حزقيل في الزمن الذي كان اليهود يحيون حياة الأسر في بابل . ويقول التاريخ اليهودي بأن بخت‌نصر هو الذي جاء بحزقيل الى بابل مع قومه اليهود فعاش الى زمن كورش . وقد وجدت في السفر المنسوب اليه نبوءآت خوطبت بها الشعوب المختلفة ، منها نبوءة في شأن يأجوج ومأجوج كذلك ، وهي كما يلي :

« وصلني كلام الرب قائلا : يا ابن آدم ، ول وجهك شطر جوج

سي تهين المستمرة ، وكانت هذه الحدود عتد الى جبال أرميفيا • فكانت قبائل سي تهين تجتاز مضيق القوقاز وتشن الغارات المدمرة على شعوب السهول حتى أن جموعاً كبيرة منها تقدمت سنة ٦٢٠ ق•م ، ووصلت الى نينوى مجتازة في طريقها ايران الشمالية . ويري مؤرخو اليونان أن هذا الحادث كان من أهم أسباب سقوط نينوى (١) •

أما الدور الرابع فينبغي أن نجعله في سنة ٥٠٠ ق • م — الزمن الذي ظهر فيه كورش تكونت مملكة مادى وفارس المتحدة فتغيرت الظروف فجأة وأمنت آسيا الغربية من هجمات قبائل سي تهين •

وكان الدور الخامس في القرن الثالث قبل الميلاد تدفق فيه سيل جديد للقبائل المنغولية وانصب على الصين • وقد سمى مؤرخو الصين هذه القبائل بـ « هيونغنو » وقد حرف الاسم فأصبح « هن » فيما بعد •

وفي هذا العصر بنى امبراطور الصين شين هوانغ تي ذلك الجدار العظيم الذي اشتهر بجدار الصين لصد هجمات هؤلاء المغيرين والذي لا يزال يوجد الى يومنا هذا • وقد بدأوا ببنائه سنة ٢٦٤ ق . م وأتموه فى مدة عشر سنين . ولما صد هذا الجدار حملات المنغول من الشمال والغرب توجهوا الى آسيا الوسطى من جديد .

وكان الدور السادس فى القرن الرابع الميلادي عندما رفعت هذه القبائل رأسها في اوربا بعد أن حظيت بقائد كبير هو أتيلا وقضت على الامبراطوية الرومانية وعلى المدنية الرومانية معاً .

وقد كان الدور الاخير ـ الدور السابع ـ في القرن الثاني عشر الميلادي فاحتشدت جموع عظيمة من القبائل فى بلاد منغوليا وخرجت

---

(١) هيرودوتس ١ — ١٠٤

دهبت طائفة من شراح التوراة في العصر الحاضر الى أن المقصود من ماجوج . هو قبائل سي تهين .

سد يأجوج ومأجوج

لنبحث الآن عن المكان الذي أقام به كورش سده .

توجد في البقعة الواقعة بين بحر الخزر والبحر الاسود سلسلة جبال قوقاز كأنها جدار طبيعي . وقد سد هذا الجدار الجبلي الطرق الموصلة بين الشمال والجنوب ، إلا طريقاً واحداً بقي مفتوحاً وهو مضيق في وسط سلسلة الجبال ، يوصل بين الشمال والجنوب . ويسمى هذا المضيق في أيامنا هذه بمضيق داريال . ويشار الى موضعه في الاطالس الحاضرة بين ولادي كيوكز وتفليس ، حيث يوجد الى الآن جدار حديدي من قديم الازمان . ولا ريب أن هذا هو الجدار الذي بناه كورش . إذ تنطبق عليه الأوصاف التي وصف بها القرآن سد ذي القرنين قائلا إنه استخدمت في بنائه زبر الحديد وأفرغ عليه النحاس بعد أن أذابوه لتتصل مفاصله ، فلا يبقى به خلل ، وقال إنه بني بين جدارين جبليين . وهذا هو ما نراه في مضيق داريال جدارين جبليين شاهقين أقيم بينهما هذا السد الحديدي الذي قفل باتصالة بالجدارين الطريق الذي كان مفتوحاً بينهما

وان الكتابات الأرمنية لها أهمية كبيرة في المسألة ، لأنها لقرب المكان أصبحت بمنزلة الشهادة المحلية ، قد سمي هذا السد أو الجدار الحديدي في اللغة الأرمنية من الدهور السالفة بـ « بهاك كوراي » و « كابان كوراي » ومعنى الكلمتين واحد ، وهو « مضيق كورش » أو « ممر كورش » . ولا يخفى أن « كور » جزء لاسم كورش بلا ريب أفلا يثبت هذا أن

وتنبأ ضده . نعم شطر جوج الذي هو رئيس أرض مأجوج ، ومسك . وتوبال فقل له : إن الرب يقول لك . إني أصبحت ضدك وإني أبدلك ، وأجرح فكيك ، وأطرد جميع جندك وفرسانك الذين يرتدون الملابس العسكرية . ويحملون السيوف والتروس ، وأطرد معهم الفارس . وكوش ، والقوط كذلك »

ويلي هذا من التفاصيل ما يتلخص في أن جوج يقدم من الشمال ناهباً مدمراً ، ولكن يحل بالقوم الدمار. فيهلكون في « وادي المسافرين » الواقع في شرق البحر ، وتبقى جثثهم تتعفن الى زمن طويل ، ثم يدفنهم الناس ليخلو لهم الطريق (٣٨:٣٩) .

وصف جوج في النبوءة بأنه رئيس : مسك ، و توبال . وكان النبوءة صورت موقع (سيتهين) الجغرافي بهذا الوصف . فليس (مسك) إلا ما نسميه الآن بموسكو . أما توبال فهي بلاد البحر الاسود المرتفعة .

ثم جاء في النبوءة « إني أردك » وهذا هو ما وقع على أيدي كورش فانه أقفل الطريق بسده على قبائل سيتهين فارتدت الى ورائها . ثم قال . إن حيش مأجوج كله يخرج وكذلك يبرز جيش فارس ويشترك معه القوط (غاله) أيضاً . ويكون هلاك مأجوج في (وادي المسافرين) وهذا هو عين ما وقع عندما هاجم داريوش بلاد اوربا فقد خرجت لمحاربته جميع قبائل سيتهين ولكنه تقدم الى الدانيوب بعد أن قتلهم شر تقتيل وبقيت جثث المقتولين منهم تتعفن على ســــاحل البحر الأسود لمدة من الزمن .

ذكر كل هذا في صحيفة حزقئيل كنبوءة إلا أن البحاث العصريين يرون أنه ألحق بها بعد ما شهد العالم داريوش وما تبعه من الحوادث . وقد

جدار دربند الحجري وباب الابواب

ويوجد هنالك عدا جدار « مضيق داريال » الحديدي جداراً آخر من الحجر في نفس هذه البقعة وبوجوده تعقدت المسألة بعض التعقد ، فلابد من معالجتها .

توجد على ساحل بحر الخزر الغربي بلدة اشتهرت من العصر الساساني باسم « دربند » وسمتها العرب بـ « باب الأبواب » وهي واقعـــة في نفس المكان الذي انتهت اليه سلسلة جبال القوقاز واتصلت بساحل بحر الخزر . وقد وجد هاهنا جدار حجري من الزمن القديم ، يبتدىء من ساحل البحر ويرتفع على منحدرات الجبـل صاعداً الى مرتفعاته ، حتى يبلغ طوله نحو ثلاثين ميلا .

وتفصيل ذلك أنك تجد قبل وصولك بلدة دربنـــد جداراً يسد الطريق كله من الساحل الى مرتفعات الجبل ، فلا يمكنك الدخول في البلدة إلا من باب في الجدار نفسه . وكذلك اذا خرجت من البلدة وجدت جداراً آخر مثل الأول يسد الطريق ، إلا أن به كذلك باباً يمكنك من التقدم . ويمتد الجداران جنباً لجنب الى مرتفعات الجبل ، وينقص الفصل بينهما كلما تقدما ، حتى يصبح عند الساحل خمسمائة يارد ، وفي هذا الفصل تقع البلدة ، ثم ينقص الفصل بعد ميلين كذلك ، فلا يجاوز مائة يارد . وهنا تنتهي سلسلة الجدارين ، فيصيران جداراً واحداً ، ويمتد هذا الجدار الى ثمانية وعشرين ميــلا ، وينتهي على المرتفعات العالية من الجبل . وكانت اشتهرت سلسلة الجدارين عند الفرس باسم « دوباره » والمكـــان الذي انتهت اليه هذه السلسلة أقيمت فيه قلعة .

وقد سدت هذه السلسلة جميع الطرق الموصلة بين الشمال والجنوب

كورش هو الذي بنى الجدار واليه نسبوه من قديم الزمان ؟

وهنالك شهادة أخرى لا تقل فى أهميتهـا عن الاولى ، وهي شهادة لغة بلاد جورجيا التي هي القوقاز بعينها . فقد سمي هـــذا المضيق باللغة الجورجيـة من الدهور الغابرة بـ « الباب الحديدي » وترجمه الأتراك الى لغتهم بـ (دامركبو) وهو مشهور الى الآن عندهم (١) .

أما المؤرخون القدماء ، فأول من ذكره منهم ، هوالرحالة اليهودي الشهير يوسف الذي كان عائشاً فى القرن الأول الميلادي ، ثم ذكره بعد أن عاينـه بنفسه المؤرخ بروكوبيس فى القرن السادس الميلادي . وذلك أن القائد الرومانى بلىساريس لما أغار على هذه الجهة فى سنة ٥٢٨ م كان الرحل معه فشاهد الأرض وما عليها .

سبق لنا أن أشرنا الى « نهرسائرس » الذي يثبت وصول كورش الى هـذه البقعه . فهنالك فى القوقاز أنهار ، ينبع كلها من هذه الجبال . وقدسمى واحد منها بنهرسائرس أي كورش . وقد وثقت المصادر الارمنية والكرجية هذا الاسم . وذكره كذلك بعض السياح الاوربيين من القرن السادس عشر ، فهذا انتونى جن كنس الذي أرسلته شركة تجارية في اندره الى ايران من طريق روسيا سنة ١٥٥٧ م ، يذكر هذا النهر في رحلته قائلا بأنه يسمى بنهر سائرس ، ثم ان جميع الخرائط التى وضعت لهـذه الجهات فى القرن الثامن عشر . ذكرت « نهرسائرس » هذا بصراحة تامة .

---

(١) ألف الـكاتب التركي واستاذ التركية والفارسية في سنت بتربورغ كاظم بك فى سنة ١٨٤٥ تاريخاً لهذه الجهات باسم « دربند نامه » وترجم الكتاب الى الانكليزية باسم تاريخ دربند ، فراجعه ، ص ٢٩ .

من الذي بنى جدار دربند

لنرى الآن من الذي بنى جدار دربند ؟ إن مصريينا لما كانوا يجهلون سد مضيق داريال ، وكان هذا الجدار أمام أعينهم . جزم بعضهم بدون تروي بأنه هو سـد ذي القرنين ، كما فعل البيضاوي وغيره ، واليه ذهب الرازي كذلك . وكان حرياً بهم أن يروا هل ينطبق على هذا الجدار وصف من أوصاف سـد ذي القرنين ؟ ولما كان الأمر ليس كذلك . فلا يجوز أن يقال إنه السد المذكور في القرآن .

يقول القرآن إن (ذي القرنين) وصل الى مكان قام على جانبيه جداران جبليان . فهل يوجد في دربند جداران جبليان ؟ ويقول القرآن إن ذا القرنين طلب زبر الحديد وأذاب النحاس . ولكن جدار دربند بني من الحجر . لا وجود فيه للحديد ولا للنحاس . وفوق ذلك بنى ذو القرنين سده بين جدارين جبليين . ليسد به الطريق بينهما . ونجد هنا في دربند جداراً ممتداً الى ثلاثين ميلا . ثم إن هذا الجدار لايسد ممراً جبلياً . بل يصعد من ساحل بحر الخزر الى مرتفعات الجبل .

ولكن لما وجد جدار مضيق داريال أو سـده وجدار دربند في بقعة واحدة من الأرض ، لا يفصل بينهما الا مسافة قليلة ، اختلط الامر على الناس . ومما يثير العجب أن بعض المؤرخين المصريين كذلك وقعوا فريسة باردة لهذا الخلط .

نسبة الجدار الى الاسكندر والاشكال التاريخي

ذهب مؤرخو العرب بناء على الروايات الساسانية الى أن الذي بنى هذا الجدار ـ جدار دربند ـ هو أنوشيروان . فقد ذكر المسعودي والحموي

سداً محكما لأنها توغلت الى داخل البحر ، فسدت طريق الساحل كلية ثم امتدت فوق الجبل الى ثلاثين ميلا ، فسدت سائر الطرق التي وجدت فى منحدرات الجبل سداً تاماً . وليس لاحد أن يخترق من الشمال الى الجنوب إلا بطريق واحد ، وهو الطريق الذي بفتحه الباب في سلسلة الجدار نفسه .

ومن المحقق أن هذا الجدار العظيم وجد قبل الاسلام ، وسمي المكان في العصر الساساني بـ « دربند » لوجود الجدار به ، أي باب المملكة المقفل وقد ذكر الاصطخري . والمسعودي ، والمقدسي . وياقوت الحموي ، والقزويني وغيرهم من المؤرخين والجغرافيين العرب هذا المكان باسم « دربند » قائلين إنه كان يعد أهم مكان في العصر الساساني ، لأن المغيرين ما كانوا يستطيعون مهاجمة ايران الشمالية إلا من هذا الطريق . وكان المكان مفتاحاً للمملكة الايرانية ، يملكها من الذي يملكه (١) .

ولما فتح العرب هذه الجهات فى القرن الاول من الهجرة أدركوا أهمية المكان كالساسانيين فدعوه بـ « باب الأبواب » عوضاً من « دربند » وسماه البعض « باب الخزر » او « باب الترك » لأنه كان الطريق لغارات هذه الشعوب . والاسم ترجمة حرفية لاسمه الرومي « كاسبين پورتا » أي باب الخزر

(١) ذكر جغرافيو العرب هذا المكان باسم « دربند » إلا أنه كان اشتهر باسم « باب الابواب » كذلك ، فألف بعض الكتاب هذا الاسم ، وقد ذكره ياقوت فى معجم البلدان بهذا الاسم .

وقد زار هـذه الجهة المؤرخ الأمريكي المعصري ، اى . وأى . جيكسن فى سنة ١٩٠٤ فضعف رواية يوسف فى رحلته واقترح من عنده قائلا : لم يشيد الاسكندر هـذه المعاقل ، ولكن بناها بعض قواده ، ثم إنهم ربما زادوا فيها في العصر الساساني !

هذا كلام مردود ، يرفض على نفس الأساس الذي رفض عليه قول القائلين بأن الاسكندر بناها . وذلك لأنه إن كان شيدها بعض قواد الاسكندر ، فمن كان هو ؟ ولماذا شيدها ؟ ولم أهمل مؤرخو ذلك العصر هذا الأمر الهام ؟ لقد وجدت روايه ـ مهما كانت واهية ـ في شأن الاسكندر ، ولم يوجد شيء مثل ذلك فى شأن قواده أبداً .

نشأ هـذا التعقد كله لأن الناس لم يميزوا بين جدار مضيق داريال وجدار دربند ، فاختلط الامر عليهم . لقد كان مفتاح المعضلة في القول بأن الذي بنى الجدار الأول ـ جدار مضيق داريال ـ هو كورش ولكن الناس لم يعلموا ذلك فأخذوا ينظرون تارة الى الاسكندر وقواده ، وتارة أخرى الى أنوشيروان ، وكان جديراً بهم أن ينظروا الى كورش الذي هو صاحب الجدار لا غيره .

حل المشكلة

يوجد فى المنطقة جداران ، ليس من الضروري أنهما بنيا في زمن واحد . فأول ما ينبغي لنا أن نعمله ، هو أن نقرر أي جدار ذكره المؤرخ يوسف وبروكوبيس : أهو مضيق داريال أم جدار دربنـد ؟ فان كان هو جدار دربند ، فلا يمكن أن يكون بناه أنوشيروان .

فاذا نظرنا الى الشواهد التاريخية من هـذه الوجهة ، يتجلى لنا ان

تفاصيل البناء ونقل عنها المؤرخون الذين جاءوا بعدها (١) ، ولكن يوجد هنا إشكال ، وهو أن المؤرخ يوسف الذي كان عائشاً في القرن الاول الميلادي ، وبروكوبيس الذي وجد في القرن السادس الميلادي ، قد ذكرا جداراً في هذه الجهة ، كما أشرنا اليه آنفاً ، غير أنهما يقولان كذلك إن الذي بناه هو الاسكندر المقدوني . في حين أن حوادث الفتح الاسكندري معروفة ، وليست بخافيــــة على التاريخ . فلم يرو قط أن الاسكندر قدم الى هذه الجهة او بنى جداراً بها . ومن المعلوم أن مثل هذه الحصون والمعاقل لا تشيد إلا اذا دعت اليه الدواعي الدفاعية . ومن المعلوم كذلك أن الاسكندر لم تصادفه داعية كهذه في سائر حروبه . لا ريب أن هذه البقعة كانت تابعة للامبراطورية الايرانيــة ، ولكنه هاجمها من طريق الشام ، وتوجه من ايران الى بنجاب (الهنــد) ولما قفل راجعــاً من بنجاب ، دهمه الموت في بابل ، فما هي الظروف التي اضطرته ـ والحالة هــذه ـ الى تشييد مثل هــذه المعاقل في بلاد قوقاز ؟ وان كان شيدها ، فمتى كان ذلك ؟ ولماذا أغفل جميع مؤرخيه ذكر حادث هام كهذا الحادث ؟

ثم هنالك إشكال آخر : إن كان جدار قوقاز بناه أنوشيروان ، فكيف يكون ذلك ؟ لقد أجمع المؤرخون على أن عصر أنوشروان كان من سنة ٥٣١ م الى سنة ٥٧٩ م . وعلى ذلك لا يمكن أن يكون بنى شيئاً قبل هذا الزمن ، ولكن يوسف يذكر الجدار في القرن الأول وبروكوبيس يشهد بوجوده في ســنة ٥٢٨ م . فعلم من هذا أن أنوشيروان لم يبن هذا الجدار .

---

(١) مروج الذهب ص ٢٠ .

فالنظامي لما ألف منظومته « اسكندرنامه » استخدم هذه المادة ، وجعل من التاريخ قصة ممتعة ، فيغلب على الظن أن أسطورة كانت قد اشتهرت في شأن مضيق داريال الحديدي كذلك ، فنقلها يوسف وحذا حذوه بروكوبيس ، ولذلك نجد المؤرخين غيرهما يذكرون معاقل هذه الجهة ولكن لا ينسبونها الى الاسكندر ، فهذا (تسي تسي) و(ليدس) يقولان بان الرومان يسمون المكان بباب الخزر . دون أن يزعما أن الجدار أو المعاقل شيدت في عصر الاسكندر .

ثم ان بعض المؤرخين وقعوا في خطأ عظيم بشأن جبال القوقاز ذكره استرابو في جغرافيته ، ونعني بذلك أنهم توهموا الجبال الواقعة في شرق بحر الخزر بأنها جبال القوقاز . فنسبوا الى تلك جميع خصوصيات هذه الجغرافية . لا ريب أن الاسكندر مر بتلك الجبال في طريقه الى الهند ، وأقام بها مدة ، ولا يبعد أن يوسف ـ بناء على هـذا الوهم ـ ظن أن الاسكندر قدم الى بلاد القوقاز أيضاً ، فبنى هذا الجدار بأمره ، وقد أصاب المستر جيكسن في قوله : ربما كان هـذا الوهم هو أساس الرواية القائلة بأن الاسكندر شيد الجدار .

والحاصل ان التفاصيل المقدمة قد أزالت الاشكالين معاً .

الحالة السياسية في القرن السادس وأهمية دربند

ثم نرى هنا أمراً واضحاً جلياً ، وهو أن الاسكندر ما كان يهمه أمر حدود ايران الشمالية والدفاع عنها ، أما أنوشيروان فكان يهمه ذلك ، ولذا اضطر الى تشييد جدار دربند .

لقد كان في عصر كورش اكبر خطر على آسيا الغربية من جهة قبائل

يوسف وبروكوبيس لا يقصدان بما ذكراه جدار دربند، بل إنما يريدان به جدار مضيق داريال الذي بناه كورش في القرن الرابع قبل الميلاد، أي قبل يوسف* بنحو خمسمائة سنة، وقبل بروكوبيس بألف سنة، الزمن الذي لم يكن لجدار دربند فيه أثر ولا خبر أما الجدار الذي ذكره المؤرخون بعد عصر يوسف وبروكوبيس. وهو الذي سمي بجدار الخزر كذلك، فهو بلا ريب جدار دربند. لأن جدار مضيق داريال لا يمكن أن يطلق عليه اسم جدار الخزر بحال.

لقد ارتفع الاشكال الآن بدفع هذه الشبهه الطفيفة التي تتعلق بكون انوشيروان هو الذي بنى الجدار، ولم تبق حاجة لتضعيف ما قاله مؤرخو العرب الذين كتبوا ما كتبوا مستندين الى روايات العصر الساساني وقد أطنبوا في ذكر تفاصيل البناء، فذكروا مثلا كيف وضع أساس الجدار في داخل البحر، وما هي الوسائل التي لجأ اليها البناؤن. لذلك ليس لنا أن نرتاب في صحة ما ذكروه. والأقرب الى الصواب أن أنوشروان هو الذي بنى جدار دربند، وأن هذا الجدار ما كان يمكن أن يوجد في عصر بروكوبيس الذي زار المكان قبل أنوشيروان بثلاث سنوات.

ولك أن تقول: إن كان الأمر كما ذكر، فلماذا نسب يوسف وبروكوبيس جدار مضيق داريال الى الاسكندر؟ والجواب أنهما إما خدعا بالشهرة العامة أو وقعا فريسة للشبهة التاريخية.

لقد راجت أساطير كثيرة بعد فتوح الاسكندر في عامة الناس. فاعتادوا أن ينسبوا اليه الأعمال العجيبة والامور الخارقة للعادة. وقد تسربت هذه الأساطير الى الكتب التي الفت في سيرة الاسكندر، ولما ترجمت هذه الكتب الى العربية، راجت الأساطير بين المسلمين كذلك،

مولانا ابو الكلام آزاد

وجدنا من المناسبة ان ندرج هنا نبذة مختصرة عن حياة المؤلف العلامة الاستاذ ابو الكلام آزاد وزير معارف الهند :

أدت ثورة الهند سنة ١٨٥٧ الى بلبلة فى حياة عدد كبير من سكان شبه القارة الهندية وكان من بين الذين تأثروا بما تطبعها من اضطرابات عالم صوفي ينحدر من اسرة عريقة في العلم والفضل يدعي محمد خيرالدين ولم يجد بدأ من مغادرة البـــلاد الى بلاد هادئه فنزح عن الهند الى مكة المكرمة ليواصل دراساته وابحاثه . وهناك اتم محمد خير الدين نصف دينه فاقترن بكريمة عالم فاضـــل هو الشيخ محمد ظاهر اوتوي وفى عام ١٨٨٨ انجبت له ابنا سمـــاه ابو الكلام محي الدين فتعلم ابو الكلام العربية عن امه اذ لم تكن تعرف لغة غيرها .

قضى ابو الكلام السنوات العشرة الاولى من حياته في مكة المكرمة ولكن اقامته بها لم تطل فقد قرر والده العودة الى مدينة كلكتا سنة ١٨٩٨ فتتلمذ أبو الكلام على والده في سن مبكرة أظهر شغفا كبيرا وميلا عظيما الى دراسة الدين والفلسفة واللغات. وجريا على عرف الزمان وجهه أبوه الى دراسة المناهج المعروفة فى الهند بدرس نظامي وتشتمل هذه على دراسة العربية والفارسية واللغة والفقه والحساب والجغرافية والتاريخ . ويجري تدريس هذا المنهج في عشر سنوات . ولكن أبو الكلام أوتي ذكاء وقادا وفطنة فريدة فأتم دروسه في أربع سنوات وفى الرابعـة عشرة من عمره عين مدرسا كما انه فى تلك السنة كتب تعليقه « لسان الصدق » فشاع صيته

سى تهين ، وكان طريق غاراتها من مضيق داريال ، ولكن الوضع الجغرافى تغير بعد الف عام ، فلم يبق خطر من قبل سى تهين ، ولكن حلت محله أخطار اخرى . كان اكبرها من جهة الامبراطورية الرومانية الشرقية في بيزنطة التي كانت تنافس الامبراطورية الفارسية . وتحاول القضاء عليها . وهي لم تكتف بطرق آسيا الصغرى المطروقة فى حروبها . بل كانت تطرق هذا الطريق كذلك . ثم كانت هنالك القبائل التركية فى سهول بحيرة بورال وبحر الخزر التي انتشرت جماهيرها فى الشمال ، وكانت هي تهاجم الجهات الشمالية من الامبراطورية الفارسية . فكان لزاماً أن يحصن هذا المكان باهتمام كبير وعلى ذلك شيد أنوشيروان ، حداردربند . وسد به هذا الطريق في وجه المهاجمين .

الحكومة مولانا أبو الكلام . ويذكر له تاريخ الهند فضلا لا ينسى اذ ان جهوده تلك أدت الى اقناع العصبة المسلمة بأبدال المبدأ القائل بالولاء لبريطانية الى ما سمي في ذلك الحين بالنظام المناسب من الحكم الذاتي في الهند وفي عام ١٩٢٠ جرت اول مقابلة بين مولانا أبو الكلام آزاد والمهاتما غاندي فقرر الاول الانضمام الى صفوف الثاني وبدأ كفاحهما منذ قاوذ (واولت) وفي حركة الخلافة سيق الى السجن ثانية فقدم عريضة دفاعية تألفت من ٣ صفحة ولكن السلطات قررت ان جزاءه على تقديم تلك العريضة الحكم بالاشغال الشاقة المؤبدة .

تسلم أبو الكلام رئاسة حزب المؤتمر الوطني ولم يتعد الخامسة والثلاثين وكان بذلك اصغر من تولى الرئاسة وقد بقي منذ ذلك الحين ركنا اساسيا في الحزب في احرج الاوقات التي مرت بها الهند وتكرر انتخابه للرئاسة مرارا عديدة حتى كانت رئاسته الاخيرة أطول رئاسة تولاها زعيم وامتدت ست سنوات مرت خلالها الهند بالحرب العالمية الثانية ويذكر انه قضى اربعا من هذه السنوات في السجن . وحينما كان في السجن فقد زوجته وشقيقته وهو بعيد عنهما

هذا مجمل لحياة مولانا ابو الكلام آزاد اما فلسفته الاساسية فقد وضعها منذ عهد بعيد بقوله ان اثمن الكنوز التي قدمها الدين الحنيف للعالم هي رسالة الديمقراطية والتساوي بين البشر . انا مسلم واعتز باسلامي . ان تقاليد الاسلام تراثي وتعاليم الاسلام وتاريخه وفنونه وآدابه وحضارته هي غناي وثروتي وواجبي ان احتفظ بهذه الثروات وهذا الغنى ؛

ولقد كرس ابو الكلام حياته في تحقيق هذا المثل وقد رفع علم الديموقراطية وخدم امته وطائفته باخلاص ما بعده اخلاص . لقد رفض

فى دوائر العلم والعرفان ودعي الى المحاضرة في لاهور فى موضوع « أسس العقل في الدين » وفى اليوم الموعود انتظم عقد الحاضرين وكلهم ينتظر شيخا تجاوز الكهولة فلما تقدم أبو الكلام ليلقى كلماته ساورهم العجب وتضاعف عجبهم بعد الاستماع الى محاضرته والاطلاع على عميق دراساته واندفع أبو الكلام بعد ذلك الى نظم الشعر فتكنى « بآزاد » ومعناها الحرية وهو يعرف بها منذ ذلك الحين اذ يشار اليه بأبي الكلام آزاد .

لم يكتف محمد خير الدين بما سهله لنجله من ثقافة . وفى سنه ١٩٠٥ أوفده الى الازهر الشريف لاتمام دراسته وهو لم يتم السابعة عشرة بعد وفى عام ١٩٠٧ عاد من الازهر ووجد الحركة الوطنية قائمة فى الهند فانخرط في سلكها ووجدان معرفة اللغة الانكليزية ضرورية لتفهم سياسة البلاد وكان والده قد توفاه الله فعكف على دراسة الانكليزية مستعينا بقاموس وكتاب للقواعد . وجاءت سنة ١٩١٢ وكان ابو الكلام قد اكتسب لقب مولانا . ومولانا فى الهند لقب علمي يساوي العالمية وبدأ يحرر صحيفته الاسبوعية (الهلال) لتنوير الرأي العام الاسلامي فى الهند حول المشاكل التي تواجه تركيا والاقطار الاسلامية الاخرى ولتنظيم صفوف المسلمين في الحركة الوطنية الهندية . وبلغت صحيفة (الهلال) رواجاً واسعا اذ كانت تطبع في اكثر من عشرة آلاف نسخة وجاءت الحرب العظمى الاولى فازداد رواجها الى خمسة وعشرين الف نسخة ولكن العهد لم يطل بها فقد وجدت السلطات البريطانية في (الهلال) منبعا لا ينضب لانتقاد الحكومة واداة فعالة فى تنظيم صفوف ابناء الهند تحت لواء الوطنية الموحد فمنعتها من الصدور ولكن أبو الكلام لم يسكت فاصدر صحيفة اخرى سماها (البلاغ) وكان مصيرها التعطيل كسابقتها . وبالاخير اعتقلت

ابو الكلام وانما ابدآ النظر في قضية الهند بعين الطائفية وان كانت جهوده لم تتكلل بالنجاح التام الذي استحقه فذلك عائد الى انه ترفع عن الاساليب التي تمرع فيها مناوؤه لنيل الاصوات . ان طاعة ابو الكلام لدينه وايمانه المطلق بتعاليم الدين وفطنته الواسعة بامور الحياة وسعت من نظرته الى المشاكل .

ابو الكلام فقيه ضليع تعمق في دراسة الدين واشتهر بتفسيره للقرآن الكريم باللغة الاردنية « ترجمان القرآن » وهو محدث بارع وخطيب مصقع واديب كبير عرف للشرق الاوسط واحبه ونهل من علمه فاخلص له .